عادل عزت

قصائد الفاني الأبدي

الأيادي

قصائد الفاني الأبدي

عادل عزت

الأيادي

قصائد الفاني الأبدي

المؤلف : عادل عزت

الناشر : الأيادي للنشر والتوزيع - تليفون : 012 476 24 39

الطبعة الأولى : القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب : 1648 / 2010

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب الأول

بعض من الفناء

تِمْساحٌ يَظْهَرُ مِنْ مَكْمَنِهِ مُنْساباً
نَحْوَ فَريسَتِهِ ، والآفاقُ تُحاوِلُ أنْ
تَتَباعَدَ حتَّى تَدْخُلَ في شَفَقٍ
يَجْمَعُ بَيْنَ الليلِ وبَيْنَ النارْ .

يَهْبِطُ بَعْضٌ مِنْ أحوالِ الآفاقِ إلى
النهرِ شُجوناً وغُموضاً ... لا أدري كيفَ
اخْتَارَتْ نَفْسي أنْ أبْدَأَ صُحْبَتَكُمْ
وأنا في أعماقِ الأنهارْ ؟!

قد هِمْتُ وهامَتْ أسماكٌ مِنْ حَوْلي .
كيفَ تَنَفَّسْتُ بقاعِ النهرِ ، وكيفَ
تَحَمَّلْتُ الأسرارْ ؟

ها تِمْساحٌ آخَرُ لَمْ يأبَهْ لوجودي
وأنا أبدأُ مَلْحَمَتي ثُعْبانًا نَهْريًّا .
هل ثَمَّةَ مَلْحَمَةٌ تَبْدَأُ من أعماقِ
الأنهارْ ؟!

في اللَّيلِ إذا صَعِدَتْ عَيْنِي فوقَ الماءِ رأيتُ نجومًا ، وسحابًا شَفَّافًا ، وشَعَرْتُ عَلَى الشاطئِ أصواتًا فاقْتَرَبَتْ نَفْسي من تِلْكَ الأسمارْ.

جِسْمي يحيا في الماءِ ، ويشتاقُ إلى دنيا الناسِ فَوَسْوَسَتِ التياراتُ لقلبي أنْ أَصْعَدَ نحو البَرِّ فأغدُوَ إنْسِيًّا لا يُحْزِنُني أنْ أَتْرُكَ أحياءَ الماءِ ، ولا أخشى أن أمْضِيَ تحت فضاءٍ تَكْثُرُ فيْهِ الأنوارْ .

مَـرَّتْ أزمـانٌ هـائـلـةٌ كـمـحـيـطـاتٍ
وأنا في غـيـبِ الأعـمـاقِ حـيـاةٌ وهـلاكٌ
تـأتِـيـنـي بَـعْـضُ مَـعـانٍ مُـبْـهَـمَـةٍ مـن
خَـلْـفِ الـتـيـارْ .

عَشَراتُ الأحياءِ حياتي . لا أسْـتَـنْـكِـفُ
أنْ أغْـدُوَ حُـوتًـا أو ضَـبـعًـا أو إنـسـانًـا
قِـردًا يَـتَـقـاتَـلُ بالأحجارْ .

مُنْفَصِلاً عن زَهْوٍ وزخارِفَ يَعْشَقُها الناسُ أَرَاني مُعْتَرِفًا أني مَحْضُ خَلايَا زائلةٍ فإذا ما مِتُّ فلَنْ أدْرِيَ هَلْ أَكَلَتْني حَيَّاتُ الأرضِ أمِ امْتَصَّتْني بعضُ جذورِ الأشجارْ ؟

أَتَذَكَّرُ نَفْسِي في الصينِ غزالاً عاشَ طويلاً . صادَقَهُ بعضُ الناسِ ، وطاردَهُ نَمِرٌ في الغاباتِ ، وعانَى في البردِ عواصفَ راحلةً ثُمَّ نَجَا ، ونَجَا حتى ماتَ عجوزًا مفتوحَ العَيْنَيْنِ عَلَى حَوَمانِ الأطيارْ.

وأتاني يومٌ حاولتُ بِهِ أنْ أُبْعَثَ إنسانًا يَحْيا في رؤياهُ في عصرِ بَنِي العبَّاسِ فَلَمْ أُفْلِحْ . حَرَمَتْني أقداري مِنْ تلكَ الأخطارْ.

أن أَكْتُبَ شِعرًا لا أمدحُ فِيهِ من أحدٍ ، وأحررَ جاريَتي ، وأَفِرَّ من الوالي مُنْضَمًّا لِغُلاةِ الأبرارْ.

دَفَعَتْني الأنغامُ إلى حيثُ تَشَاءُ
وما كانَتْ تَتْرُكُني . نَثَرَتْني أسماءً
مُتَعَدِّدَةً في الدنيا وبهذا جَعَلَتْ مِنِّي
فَيْضًا من أقدارْ .

فأخَذْتُ أُدَوِّنُ أحوالَ وجودي في
الماءِ ، وفي الأدغالِ ، وفي كُثْبانٍ
تَتَخَفَّى فيها الآبارْ .

المُفِيق

لا شـيءَ يُـهَـدِّدُنـي وأنـا دُبٌّ قُـطْـبِـيٌّ
شَـرِسٌ تَـتَـجَـنَّـبُـني الـمَـخْـلوقاتْ .

أبْـيَـضُ أمـلِـكُ أرضًا بـيـضـاءْ .

ألْـهُـو بـالـصَّـيـدِ وبـالأكـلِ فـإنْ نِـمْـتُ
بَـقِـيـتُ شهورًا كالأمـواتْ .

أصحـو أتَـذَكَّـرُ نَـفْـسي وأنا أتَـشَـمَّـمُ
ما حَـوْلي مِـن آمـادْ .

ها هي أنثى، ما إنْ دَفَعَتْني أَقدامي
لأروحَ إليها حتَّى، ضاعتْ مِنِّي
تَحْتَ جبالِ ثُلوجٍ سَقَطَتْ أمواجًا
تَتْلوها أمواجْ .

ما أتعَسَني وأنا أُدْرِكُ أنَّ الموتَ
يَجِيءُ لمَخْلوقٍ مِثلي تَخْشاهُ
المَخْلوقاتْ .

16

العائلة

كان الناسُ وحوشًا ، وأنا مِنْهُمْ ، والأشياءُ بِلا أسماءٍ ... أَتَعَجَّبُ مِن دنيا هي فَيْضٌ مِن ألوانٍ تَتَغَيَّرُ مِن حَوْلي في لَيْلِي ونهاري .

أمَّا نَفْسي فغروبٌ يَشْتاقُ إلى فَجْرٍ ، والناسُ تَمُرُّ بعيدًا وقريبًا ثم تَغِيبُ ضَبابًا ، والشَّهَواتُ تُبَدِّلُ أحوالي .

أمْشِي في زَهْوٍ من فَرْطِ القوةِ في جِسْمي لا أخْشَى من أشباحٍ تَهْبِطُ من أشجارِ الليلِ وتنسابُ أمامي .

قد يَسْتَأنِسُني إنسانٌ مِثْلي إنْ أَصْدَرَ أصواتًا مُتَناغِمَةً أَسْتَشْعِرُ فيها أمْنًا . إنْ كانَ ضعيفًا أُطْعِمْهُ وأحاولْ أنْ أَطْرُدَ عَنْهُ ما يَخْشاهُ ... هل بَزَغَ الإشفاقُ بقلبي مِن تلكَ الأصواتِ ؟!

قادَتْني أشواقي نَحو أراضٍ تَعْكِفُ في الصيفِ على اسْتِقْبالِ الأمطارِ .

كنتُ بِها أَسْتَنْزِفُ بَعْضًا من قوةِ جِسْمي إذ أصْعَدُ في حَذَرٍ جَبلاً وأحِسُّ بقلبي مُنْتَشِيًا من فَرْطِ شعوري بالأخطارِ .

فأَبِـيـتُ بإحدىٰ الفَجَوَاتِ ، وفيها أصْحُو
وأنـامُ فـأشـعـرُ أنـي أَتَـبَـدَّدُ حـيـنـًا ،
وأُجَـمِّـعُ نَـفْـسـي حـيـنـًا ، وحَنِـيـنـي يَـعْدو
فـي الـوُديـانِ .

لِـمَـعـانٍ تَـتَـبـاعَـدُ عـنـي أَصْـبُـو فأُسـارِعُ
فـي تَـرْحـالـي .

عَبَرَتْ أسْرابُ طيورٍ ، وانْطَلَقَتْ غِزلانٌ ، وبَدَا قُرْبِي إنسانٌ .. هي أُنْثَى، فأَنِسْتُ إليها . سارتْ مُتَبَاعِدَةً واثِقَةً أني أَتَتَبَّعُها .. ما كُنتُ سوى مُرْتَحِلٍ ، وأنا مُرْتَحِلٌ إنْ غَيَّرْتُ مَساري .

ما أجملَها ... تحتاجُ إلى عشرةِ أيامٍ من غَزَلٍ حتى تَسْتَسْلِمَ .. قد جَعَلَتْني أُدْرِكُ أنِّي مِثْلُ الأحياءِ جَميعًا لا أدْرِي كيف تَسِيرُ حياتي .

أَخَذَتْ تَتَأمَّلُني وأنا ألْمِسُها ، وبقايا أمطارٍ تَتَحَسَّسُنا .. دَخَلَتْ في رائحَتي صارِخَةً راغِبَةً تتضاءلُ داخلَ جِسْمي ، وأظافِرُها كادَتْ تَخْدِشُني ، وأنا مذهولٌ بمفاتِنِها .. صرنا إيقاعاتٍ مُتَواصِلَةً، وهنالكَ إيقاعاتٌ أخرَىٰ تأتينا من أصواتِ مِياهِ الشلالِ .

ما عادَتْ تَتْرُكُني ، والأعوامُ تَمُرُّ علينا ..
كانَتْ تُنْجِبُ أبناءً وأنا أسعَى ألاَّ أُكْثِرَ
من تَرْحالي .

أبناءٌ كانوا أفْئِدَةً فيها أنوارٌ
وجُمُوحٌ ، ولَهُمْ نَظَراتٌ تَبْحَثُ في
الأجواءِ عن الأنغامِ .

لَمَّا صاروا شُبَّانًا كنتُ أراهُمْ آمالاً ،
ومعانيَ تَحْميني ، وتُباعِدُني عن مَوْتي،
وتُبَرِّرُ لي أوهامي .

أَتَـذَكَّـرُ لَـيْـلاً كـنَّـا فيـهِ نَـمْـكُـثُ بـيـنَ نـجـومٍ تَـبْـعَـثُ للدنـيـا كـلـماتٍ غامِـضَـةً ، ونَرَىٰ الآفـاقَ ظـلامًـا مُـتَّـصِـلاً بـبـهـاءِ الأكـوانِ .

هـائِـلَـةٌ نَـشَـواتـي وأنـا تـحـتَ سـمـاءِ الليـلِ يُـؤانِـسُـنـي أبـنـائي .

لكأنِّي في تلكَ اللحظاتِ مَـلَـكْـتُ الأرضَ جَميعًا ... فـلـمـاذا أحـزانـي ؟!

المَلاذ

وَحْشٌ يَتَرَبَّصُ بي ، والحَرُّ هدوءٌ مجنونٌ
فالْتَجَأَتْ خُطُواتي للأحراشْ .

ما كنتُ سِوَىٰ جسمٍ عارٍ أَمْضِي
عَبْرَ نباتاتٍ أطولَ مني . أَتَخَفَّىٰ
مِمَّنْ يبدو أكثرَ جوعًا مني .
سأقاتِلُهُ إنْ حاولَ أن يَنْهَشَني ،
وأُرِيهِ مَنْ منَّا سَيَعِيشْ .

من فرطِ اسْتِغْراقي في قَدَري لَمْ
يَأْبَهْ جِلدي لوجودِ الأشواكِ ، ولَمْ
أَشْعُرْ أنَّ جُروحي تُغْرِي حشراتٍ
ذاتَ أزيزْ .

قُـلْـتُ لِـنَـفْـسِـي لو هاجَـمَـنـي أَرْمِـيـهِ
بالأحـجـارِ بِـكَـفٍّ ... كـانَ الإبْـهـامُ
بـكَـفِّـي الأخرَىٰ مَـكْسُورًا .. أمَّا جِسْمي
فـنُـدوبٌ ، ودمـاءٌ ، وخُـدُوشْ .

كـنـتُ بأرضٍ تُـفْـضِـي للنـهرِ الفـيـاضِ
بأرضٍ سـوف تُسَـمَّىٰ بَـعْـدَ دُهورٍ ببـلادِ
الأحـبـاشْ .

قد مات أشقائي ، وافْتُرِسَتْ أبنائي ... ما كان خيالي حينئذٍ يُدْرِكُ أنَّ الموتَ هروبٌ من دنيا مُؤْلِمَةٍ .. أنَّ الموتَ نجاةٌ ومَلاذْ .

ها وَحْشُ ثانٍ يَنْضَمُّ إليهِ .. عندئذٍ أَضْعَفَني خَوْفي . لا أتذكَّرُ كَيف افْتَرَسَاني . هَمَدَتْ أنفاسي في جَوْفي ، واسْوَدَّتْ مِنْ حولي أنوارُ الأحراشْ .

الأسرار الأولى

هـا بَـعْـضٌ مِـن أيـامـي إذْ كـنـتُ بَـعـيـدًا
عَـشَـرات الآلافِ مـن الأعـوامِ أراقِـبُ
فـي حَـذَرٍ قُـطْـعـانَ الـثِّـيـرانْ .

أحْـسَـسْـتُ بأنَّ الـثَّـورَ هـو الـمَـخْـلـوقُ
الأعلى. قُوَّتُهُ تَجْعَلُهُ يَتَقَدَّمُ لا يَخْشَى
شيئًا ، وحَوافِرُهُ تَحْمِيهِ مِنْ إيذاءٍ
مُنْتَشِرٍ في الأرضِ ، وقَرْناهُ يَنْغَرِسانِ
بِخَصْمٍ يَتَقَرَّبُ مِنْ أُنْثَى هوَ يَرْغَبُ
فيها. لـيسَ يـخـافُ . لقد كان الخوفُ
قَرِينَ الإنسانْ .

ها أنَذَا أُشْعِلُ نارًا ، ثم أرُوحُ إلىٰ كهفٍ فأرَىٰ الجُدْرانْ .

وعليها أرسمُ نَفْسي ثَورًا .. أما الثيرانُ فأرسمُها ناسًا يَكْسوها شَعْرٌ ، ولهُمْ نَظَرَاتٌ مُبْهَمَةٌ ، وحوافِرُ قد تَجْعَلُهم في أرجاءِ اللَّوْحَةِ يَمْشونْ .

ثم أُضِيفُ نِقاطًا ودوائرَ .. لا أدري هل هي أحجارٌ أمْ أصواتٌ أمْ عَثَراتْ ؟

لابـد وأنْ أُسْـرِعَ في رَسْـمِـي فـالـنـارُ
إذا أَخَـذَتْ تَـذْوِي صـارتْ كـلُّ الـلَّـوْحَـةِ
بـعـضَ ظِـلالْ .

هـذِي نَـشَـواتي الـسِّـريَّـةُ لَـسْـتُ أُرِيـهـا
أحَـدًا . أخْـشَـى، وأنـا مُـبْـتَـعِـدٌ عـنْـهـا
أنْ يَـمْـحُـوَهـا شـبـحٌ أو شَـيـطـانْ .

كـم أسْـتَـغْـرِبُ أنـي مـا أحْـبَـبْـتُ وجـودي
في الـدنـيـا مِـقْـدارَ وجـودي في لَـوْحـاتٍ
يُـخْـفـيـهـا الإظـلامْ .

العائش في الأصوات

عبداً كنتُ لَدَى مَلِكٍ يَسْتَعْذِبُ أنْ
يَسْمَعَ في الليلِ غِنائي .

في مَجْلِسِهِ يَجْتَمِعُ الناسُ ، وبالألحانِ
انْدَمَجَ الناسُ مع الناسِ .

ما كِدْتُ أشِبُّ إلى دَرَجاتِ الأحرارِ
أَبِيًّا حتى عَمَّ بكاءٌ : ماتَ المَلِكُ
العادلُ فاضْطَرَبَتْ أنغامي .

آلَ المُلْكُ لأرمَلَةٍ عَشِقَتْني . كانَ تَبَرُّجُها كلِماتٍ كاذبةً ، وتَصابِيها يؤلِمُني . إني المِسْكينُ أعاشِرُها حَتَّى أنجُوَ مِنْ قَسْوَتِها ... قُلْتُ لنَفْسي : مَنْ أَخَذَتْ جَسَدِي قَدْ تَجْعَلُني أتَصاعَدُ نَحْوَ طُموحاتي .

مولاتي إنْ دَخَلَتْ لفِراشِي طَلَبَتْ مِنِّي أنْ أَسْتَعْبِدَها ، وتَمَنَّتْ لو تتلاشَى في أنفاسي .

ما عُدْتُ أُغَنِّي . لستُ أراها تَطْرَبُ إلا للشهواتِ .

ما عُدْتُ سوىٰ جسمٍ يتحركُ في قَصْرٍ . أحيا في الصمتِ أو الزَّجْرِ .. لَكَمْ صرتُ بعيدًا عن آذانِ الملهوفينَ لإنشادي .

عَبَثًا كُنْتُ أحاولُ – وهْي تُعَانِقُني – أنْ أَسْتَعْطِفَها حتَّىٰ تُرْجِعَني لمَصيري ولألحاني .

أَظْهَرْتُ لها وجهي يَتَعَذَّبُ ما كانت تُصْغي لبكائي .

فَبَدَأْتُ أعاقِبُها ... صارَتْ إنْ تَتَقَرَّبْ مِنِّي أَتَمَنَّعْ ... ما أغباني .

أَمَـرَتْ حُـرَّاسـًا سـاقُـونـي مَـعْـصـوبَ العَيْنَيْنِ إلىٰ قَبْوٍ فَـتَـراءىٰ مَـنْ حَولي مِـنْ حُـرَّاسٍ أطـيـافـًا .. أطـيـافـًا أَخَـذَتْ تَجلِدُني حتىٰ صرتُ غـريـبًا عن جسمي أَتَـمـادَىٰ فـي هـذيـانـي .

آخـــر مـا أتَـــذَكَّـــرُهُ وأنـا حـيٌّ كـانـت صـرخـاتي .

لَـمْ أتـذكَّـرْ لَـحَـظـاتٍ فَـصَـلُـوا فـيـهـا رأسـي . مـا كـنـتُ سـوىٰ عـبـدٍ لابـدَّ وأنْ أُقْـتَـلَ إنْ أَفْـصَـحْـتُ قـلـيـلاً عـن أشـجـانـي .

بعد سُويْعاتٍ من مَوْتي جاءتْ مَنْ عشِقَتْني ورأتْني مُنْتَهيًا . أَتُراها خافَتْ مِنْ وجهي وهْو بعيدٌ عن باقي أعضائي ؟

هل غافَلَها بعضٌ مِنْ نَدَمٍ إذ جَعَلَتْني صمتًا ودماءً وبقايا وَجْدٍ ؟ هل نَسِيَتْ دفئًا كانت تَسْتَشْعِرُهُ بمَسَامي ؟

لابد وأنْ أمضي . كانت روحي تَنْظُرُ خائفةً مِنِّي وتحاولُ أنْ تتباعدَ عن أشلائي .

فانْجَذَبَتْ نحو حياةٍ أخرىٰ . صارَتْ وَطْواطًا يَحْيا بمَغَارٍ . أيامي ليلٌ أبديٌّ . لا أعرفُ مَعْنَىٰ الإبصارِ ولا الأنوارِ ولكني أُدْرِكُ أين مكاني .

الأصواتُ حياتي .

أعْرِفُ كيف أُعاشرُ أنثى ، وأَطِيرُ وأصطادُ بِوَحْيٍ مِنْ تَفْرِقَتي بين الأصواتِ .

صارت رَفْرَفَتِي أَنْغامي .

مَنْ غَيْري يُبْصِرُ بالأصواتِ ؟

المـأســور

إنِّي أعْرِفُ كيفَ أُزاوِجُ بينَ الأخشابِ وبينَ الأصْدافِ فأجعلُ منها تُحَفًا ببيوتِ الوُجَهَاءِ .

ما أَصْنَعُهُ يَجْعَلُهُمْ يَزْدادونَ غُروراً، وأنا تَتَزايَدُ أموالي .

قد ضَاعَتْ من ذاكِرَتي مِحَنٌ جاءَتْني وأنا طِفْلٌ ، وغَفَرْتُ لمَنْ عَلَّمَني أسرارَ الأخشابِ شَرَاسَتَهُ ، وتَلَذُّذَهُ بهَواني .

زَوَّجَني أهْلي بفَتاةٍ لَمْ أَرَها إلا يومَ زِفافي .. دَخَلَتْ غُرْفَةَ نَومي خَجْلَى، وأنا أَتْبَعُها خَجِلاً . كانَ الأهْلُ وراءَ البابِ وحُوشًا يَنْتَظِرونَ دماءَ بَكارَتِها . كيفَ أُعاشِرُها وأنا لا أعْرِفُها ؟! أصواتُ دُفوفٍ خَلْفَ البابِ أُحِسُّ بها تَسْتَعْجِلُني فَتَحَوَّلْتُ هُمَامًا مُغْتَصِبًا أَتَجاهَلُ أنَّاتِ أَسْمَعُها مِنْها ، وأحاولُ ألا يُفْصِحَ وَجْهي عن أحزاني .

بَـعْـدَ أسـابـيـعَ بَـدَأْتُ أرَىٰ بَـسْـمَـتَـهـا فبَدَأْتُ أراها ، وشَعَرْتُ بها تَتَمَنَّاني .

أَخَـذَتْ تُـنْـجِـبُ لـي بِـنْـتـًا كلَّ ثـلاثـةِ أعـوامٍ فأَتَـتْـنـي أحـلامٌ تُـخْـبِـرُنـي أنِّـي سـوفَ أُزَوِّجُـهُـنَّ جـمـيـعـًا ، ثُـمَّ أعـيـشُ بَـقِـيَّـةَ عُـمْـري مُـغْـتَـبِـطـًا في ضَجَّـةِ أحـفـادي .

ذاتَ مـسـاءٍ جـاءَ إلـىٰ بَـيْـتـي جُـنْـدٌ أَخَـذونـي كالـمـأسـورِ إلىٰ قَـصْـرِ الـوَالِـي الـعُـثْـمـانـي .

تَرَكوني في قَبْوٍ ثُمَّ أتاني مَنْ يَأْمُرُني أنْ أُنْشِئَ لوحاتٍ مِنْ خَشَبٍ مَحْفورٍ يَرْضَى عَنْها أهلُ الوَالِي .

وَعَدوني أنَّ رِضاهُمْ سوفَ يُحَرِّرُني . قلتُ لنَفْسي هي أوقاتٌ تُسْرَقُ مِنِّي بَعْدَئِذٍ أَرْجِعُ حَيْثُ حياتي .

فمَكَثْتُ شُهوراً أَعْمَلُ في القَبْوِ
دَءُوباً حتى أَعْطَيْتُ إليهمْ ما طَلَبوهُ
فابْتَهَجوا ... ما كَتَمُوا عَنِّي نَظَراتٍ
فِيها اسْتِحْسانٌ . لا أدري إنْ كانوا
شَعَرُوا بِنُحُولِي ، وبِمَا فَعَلَتْهُ العُزْلَةُ
والليلُ بِجِسْمي وبأعماقي .

أَعْطَوني آمالاً كاذبةً ، ووعوداً حينَ
سألْتُ بصَوتٍ باكٍ : أينَ نَجَاتي ؟

أصبحتُ لَهُمْ كَنْزًا مَمْلُوكًا وبهذا ما تَرَكوني أنْجو . طَلَبوا تُحَفًا ونَفائِسَ أُخرَى تَجْعَلُني أَبْقَى في القَبْوِ سنينًا فانْطَفَأَتْ آخِرُ أنواري .

جاءَ الليلُ عَلَى نَفْسي دَفَقَاتٍ من أصواتٍ هازِئَةٍ تُخْبِرُني أنِّي ما عُدْتُ سوى مَخْلوقٍ مَخْدوعٍ . ما أظْلَمَهمْ .. قد أَخَذوني مِنْ أيامي .

في الصُّبْحِ أَتاني يَأسُ أَنْهَكَ جِسْمي .. لَكأنَّ هناكَ صِلاتٍ بينَ الأحجارِ وبينَ عِظامِي .

وسَمِعْتُ مُوَاءً فرأيْتُ أمامي قِطًّا يَنْظُرُ لي من قُضْبانِ الشُّبَّاكِ ، ويَمْضي في كَسَلٍ . هو حُرٌّ وأنا مأسورٌ يَتَزايَدُ إعيائي .

ما أَظْلَمَهُمُ ... ظَنُّوني أَتَمارَضُ حتىٰ أنْجُوَ مِنْهم وبهذا عُوقِبْتُ فأُرْسِلْتُ إلىٰ سِجْنٍ وهناكَ بَقِيتُ بإحدَىٰ الزِّنزاناتِ وحيدًا . كانَ الصُّبْحُ غُروبًا ، والليلُ يُذَكِّرُني بغَرائِبِ أقداري .

كنتُ أحاولُ ألا أَتَذَكَّرَ مِنْ عُمْري إلا بَيْتي وبَنَاتي .

وأتاني كابوسٌ خَفَّفَ بَعضًا من آلامي .. ها أنَذا أَتَحَرَّكُ مُغْتَاظًا حَوْلَ سَريرِ الوالي .. كانَ يَنامُ هَنيئًا .. أمَّا زَوْجَتُهُ المَمْلوءةُ شَحْمًا وشُرورًا فرَأَتْني خائفةً . لَمْ تَقْدِرْ أنْ تَصْرُخَ مُسْتَنْجِدَةً فاخْتارَتْ أنْ تُغْمِضَ عَيْنَيْها حتى تَتَجَنَّبَ حِقْدًا في نَظَراتي .

في لَحَظاتٍ أَكْمَلْتُ سَريرَهُما تابوتًا وحَبَسْتُهُما فيهِ ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ عَلَى ضَحِكي وبُكائي .

ما أَسْرَعَ ما انْسَبْتُ إلى أيامٍ هي صَمْتٌ تَتَخَلَّلُهُ صَرَخاتي أو هَذَياني .

صِرتُ أَسُبُّ الحرَّاسَ بلا خوفٍ . لا أَشْعُرُ بالبردِ ولا بالحَرِّ ولا حتى بوجودي في أَسْمَالي .

لمَّا ازْدادَ سِبَابي قَتَلوني تَعْذيبًا
فأضاءَتْ رُوحي لحَظَاتٍ في بَهْوِ
التعذيبِ ، وغابَتْ في غَيْبِ الأزمانِ .

أتمنَّى إنْ عُدْتُ إلى الدنيا أنْ
أَتَجَنَّبَ أيامَ الناسِ ، وأنْ أغدُوَ
مُخْتَلِيًا في أيامي.

فَأَفَقْتُ على كَوْني ثُعْبانًا مُنْعَزِلاً
في أعتابِ الرُّبْعِ الخالي.

أغطِسُ في رملٍ كالجَمْرِ فأَبْقَى
ساعاتٍ مُنْتَظِرًا أنْ يَعْبُرَ قُرْبي
مَخْلُوقٌ أَصْغَرُ مِنّي حتى آكُلَهُ ...
إنْ نامتْ رأسي تَتَشابَهْ أحلامي .

كانَ الكَونُ جَميعًا بِضْعَةَ أمتارٍ
من صَحْراءٍ ، وأنا لا أدري شيئًا عن
ماضي رُوحي ، ولَعَلَّ وجودي ثُعْبَانًا
هو أعوامُ اسْتِرْخاءٍ ... بَعْدَئِذٍ قد
أرجِعُ إنسانًا تَتَبَدَّلُ أحوالي .

الأسـرار

كيفَ لنَفْسي أنْ تُدْرِكَ أشواقًا ورموزًا
تَجْزِمُ أنَّ الكَونَ جميعًا بعضٌ من
ذَرَّاتْ ؟!

ذَرَّاتٌ تَتَلاقَى حتى تَغْدُوَ أحياءً ...
تَتَفَرَّقُ مِثْلَ غروبِ الشمسِ هَباءً .
هي غَيْبٌ تتكونُ مِنْهُ كلُّ الأشياءْ .

ثَمَّةَ ألغازٌ تَجْعَلُها الخالقَ والمخلوقَ المُتَبَدِّلَ أنواراً وظلاماً ومصائرَ عَبْرَ ملايينِ الأعوامْ .

ما كانَ هنالِكَ مِنْ زَمَنٍ وأنا إحدَىٰ الأسماكِ ... مسافاتُ الماءِ تُخادِعُني فأُسَارِعُ مُنْدَفِعاً نحوَ نباتاتِ الأعماقْ .

اَكُلُ أسماكاً غافِلَةً عني ، وأحاولُ أنْ أتَفادَىٰ مَكْرَ كِبارِ الأسماكْ .

ما أكثرَ ما افْتَرَسوني لأصيرَ جُزَيْئاتٍ
تَتَلاشى في أجسامٍ أخرَى ثم أعُودَ
لأحْيَا ، وأعُودَ لأحْيَا .. تَكْرارٌ عاشَتْ
فيهِ روحي فانِيَةً خالدةً تتأمَّلُ
أسرارَ التياراتْ .

ما كِدْتُ أهاجِرُ من أسْرِ الماءِ ، وأمضِي
نحو الشاطئِ ذئبًا حتى حَذَّرَني
قلبي من غَدْرِ الغاباتْ .

أَعْـوِي والـيـأسُ غَـمَـامٌ يـتـزايَـدُ مِـنْ حـولـي ، وحـواسِّـي تـبـحـثُ مـن أيـامٍ عـن لـحـمٍ أَنْـهَـشُـهُ ، ودمـاءُ ضـحـايـايَ هـي الـمَـجْـدُ الـدائـمُ في ذاكِـرَتـي ... سأحاولُ أنْ أنـضـمَّ إلى بـعـضِ ذئـابٍ لـنـصِـيـرَ قَـطيعًا وبهذا تتوحَّدُ في الصيدِ جميعُ الأنـيـابْ .

مـا كِـدْتُ أَفِـرُّ مـن الـغـابـاتِ فـأبـدو إنـسـانًـا أَبْـحَـثُ عـن ظـلٍّ يُـؤْويـنـي حـتـى حَـذَّرَنـي قـلـبـي مـن كـلِّ الأشـيـاءْ .

كان الإنسانُ قُبَيْلَ وجودِ الألفاظِ عَبُوسًا ... يتكلمُ غَمْغَمَةً ، يُفْصِحُ زَمْجَرَةً ، والأشواقُ لَدَيْهِ رَغَباتٌ وغرائزُ رَعْناءْ .

حتى أَثْقَلَهُ الدهرُ ببعضِ مَعانٍ فانْساقَ إلى وَعيٍ أدركَ فيهِ أن هناكَ غدًا ، أن الأقدارَ حكاياتٌ لا تَبْدو للرَّائي إلا إنْ صارت في أَسْرِ الأوقاتْ .

في خَلْوَتِهِ كان القلبُ أسًى ، والعشقُ لَهُ صِلَةٌ بالأشجارِ وبالأصواتْ .

فَبَنَى مُدُنًا .. هي أهْواءٌ مُتَنَازِعَةٌ ، وأساطيرُ ، وأحزانٌ ، وكثيرٌ من أوهامْ ...

وتلاشَى في الليلِ مع الأنغامْ .

مِن أينَ أتَى الإنسانُ بشِعْرٍ يَجْعَلُ من لحَظاتِ الصَّحْوِ مُكوثًا في الأحلامْ ؟!

مِـن أيـنَ أتَـى بـمَـعَـانٍ كـانَ يَـراهـا تَـهْـرُبُ مِـنْـهُ . ظَـلَّ يُطارِدُها ، ويُطارِدُها حتى أصبحَ ذا مَـقْـدِرَةٍ جَـعَـلَـتْـهُ يُـبْـقِـيها في الـكَـلِـماتْ ؟

كَـلِـماتٌ ... بَـعْـضٌ مِـنها سِـحْـرٌ يَـجْـعَـلُـهُ يَـتَـسامَـى وهْـو الجِـسمُ المُـتَـكَـوِّنُ مِـن تَـكْـويـناتٍ مُـبْـهَـمَـةٍ مِـن ذرَّاتْ !

السفينة الجانحة

فـي مُـنْـتَـصَـفِ الـبَـحْـرِ انْـسَـلَّـتْ أَطـيـافٌ تَـتَـخَـلَّـصُ من أطـيـافٍ ، وانْـفَـصَـلَ الـمـاءُ عـن الـمـاءْ .

صارَ الـبَـحْـرُ جـمـاعـاتٍ مـن مـاءْ .

أمـواجًا تَـتَـدَفَّـقُ عـالـيـةً تـاركـةً أمـواجًا دَهْـمـاءْ .

وأنا بحَّارٌ مُبْتَدِئٌ يتمازجُ فَيْضُ المرئياتِ بِعَيْنَيَّ الزَّرْقاوَيْنِ ، وتَنْسابُ إلىٰ جِسْمي الأصواتْ .

كان التَّرْحالُ شَقاءً ، وسَماءُ البحْرِ تُناديني ، وعَلَىٰ قلبي ألا يُسْرِفَ في الأشواقْ .

ها سُفُنٌ - لاهثةً خلفَ مطامِعِها - تنسابُ لتبحثَ عن ثرواتٍ فيالآفاقْ .

والبَحَّارةُ مِنْ حَوْلِي أَضْنَتْهُمْ سنواتُ الإبحارِ فكانوا أفئدةً قاسيةً ، ونفوسًا بَكْماءْ .

أيكونُ مَصِيري أنْ أصبحَ مُنْضَمًّا لضَياعٍ أبديٍّ بين شواطئِ تلكَ الدنيا حَتَّى تتراكمَ عند التجارِ الثرواتُ على الثرواتْ ؟!

أَوْعَــزَ لــي أهــلــي أَنْ أصــبــحَ بَـحَّــارًا
حــتــىٰ أمْـضِـيَ مُـرْتَـحِـلاً عـنـهـم وبـهـذا
قـد أنْـسَـىٰ عِـشْـقـي وجـنـونـي بـفـتـاةٍ
ســوداءْ .

جَـهِـلـوا أَنَّ هـنـاكَ مـعـانـيَ كـامـنـةً في
الأضـدادْ .

بتصاعُدِ رِحْلتِنا تتزايدُ في نَفْسِي
الأسماءْ .

في أحدِ الشطآنِ رأيتُ رِجالاً وقدِ
اصْطادوا بَشَرًا . لقدِ انْتَزَعُوهُمْ
من دُنْياهم . هل يُمْكِنُ أن تتحولَ
تلكَ الأرواحُ إلىٰ أشياءْ ؟!

كانوا أحراراً بالأمسِ ، وها هُمْ مغتربونَ
حَيارَىٰ في الأصفادْ .

شُبَّانٌ ونِساءٌ وقليلٌ من فتياتٍ
أَعْيُنُهُمْ تتساءلُ أين الأهلُ ؟ وأين
الغاباتُ ؟ وكيف تَخَفَّتْ عنَّا الآمادْ؟

زَجَرُوهُمْ فانْدَفَعوا مَذْهُولينَ إلىٰ أعماقِ سَفِينَتِنا ... صاروا سِلَعًا بَيْنَ زِحامٍ مِنْ سِلَعٍ أخرىٰ ، وأنا في السَّطْحِ أرَىٰ ضَحِكاتِ الأوغادْ .

دَارَيْتُ بكائي . هل كانت بَشْرَتُنا البيضاءُ ، وأنوارُ حضارتِنا تُغْرِينا أنْ نَسْتَعْبِدَ تلكَ الأجناسَ السوداءْ ؟!

عُدْنا بغَنَائِمِنَا فَشَعَرْتُ بأنَّ سَفِينَتَنا عارٌ يمضي فوق الماءْ .

أَسْمَعُهُمْ ينتحِبُونَ هنالكَ في ظُلُمَاتِ الغرفِ السُّفْلِيَّةِ حتَّى جاء الليلُ فكانت أصواتُ المظلومينَ تحاصرُني باللعناتْ .

قالَ زَميلي يَسْتَهْزِئُ بي : " أَسْتَغْرِبُ أنْ تَسْمَعَ أصواتَ الهَمَجِ الوَثَنِيينَ فيأتيكَ الإشفاقْ " .

رُحْتُ أُغافِلُهُ فَسَرَقْتُ مفاتيحَ الأصفادِ وصرتُ أُحَرِّرُهُمْ ، وبهذا صارت رِحْلَتُنا قَدَرًا مَجْهولاً تحت الأفلاكْ.

قد َصعِدَ الأسْرَىٰ للسطحِ وحوشًا دَخَلَتْ في أرضِ وحوشٍ أُخْرَىٰ . عَمَّتْ فَوْضَىٰ ، وتَدَاخَلَتِ الأجسادْ .

لم يُـدْرِكْ أسـرانـا أني مَنْ حـاولَ أنْ يُنْقِـذَهُمْ ، وبهذا صِـرتُ – مع البِـيضِ – عَـدُوًّا .. أَحَـدُ الـشُّـبَّـانِ السُّودِ جَـسُـورًا ألـقـانـي في الـمـاءْ .

فَهَبَطْتُ إلى التيَّاراتِ وحيدًا. نورُ البَدْرِ أراني هَجَماتِ الأمواجِ الهَوْجاءْ .

وقُبَيْلَ الفَجْرِ تَرَاءَتْ روحي صاعدةً من جِسْمٍ أَخَذَتْ تـأكُـلُـهُ الأسـمـاكْ .

الـواهـم

طَرَدوني منْ دُنْيا الرُّهْبانِ وما اغْتَفَروا
هَفَواتي . لَمْ يَشْفَعْ لي شَغَفي بالعَزْفِ ،
ولا أشعارٌ بَجَّلْتُ بها العَذراءْ .

طَرَدوني فخَرَجْتُ من الدَّيْرِ وحيداً
أتَناسَى أصواتًا غالَتْ في تأنيبي ،
وضَجيجًا كإهاناتٍ أَحْدَثَهُ بعد خُروجي
مِزْلاجُ البابْ .

أكثرُ من راهبةٍ كانت تَشكو من إيماءاتي . واحِدَةٌ شَهِدَتْ أنِّي ... أنِّي ... هي من أوْحَتْ لي أنْ أتمنَّاها . كانت تتكلمُ في هَمْسٍ مُغْرٍ ، وأرَىٰ عَيْنَيها فأُسائِلُ نَفْسي هل تَلْتَمِعانِ لفَرْطِ الإيمانْ ؟!

لو كنتُ وسِيمًا ما فَضَحَتْ أَمْري . بَسْمَتُها كانتْ تَتَهَكَّمُ من طُولِي ، ونَحافَةِ جِسْمي ، وتَقَوُّسِ أنْفي . يومًا قالتْ لزميلتِها مُتَعَمِّدَةً أنْ تُسْمِعَني : " هو يَبْدو كالمجنونْ " .

لم أيأسْ . كنتُ بأوقاتِ القُدَّاسِ – وعَزْفي أشْعُرُهُ يَتَغَلْغَلُ في جِسْمي – أُرْسِلُ ما أمْكَنَني من نَظَراتْ .

قلتُ لعلَّ مَهارةَ عَزْفي تُضْعِفُها . صَوَّبْتُ إليها شَغَفي فشَعَرْتُ بها غافِلَةً عن دَفَقاتِ المُوسيقى . ما أحْمَقَني إذ كنتُ بتلكَ الأيامِ أحاولُ أن أتقرَّبَ من حَمْقَاءْ .

أنوارُ الأنغامِ أرَتْني أنِّي كنتُ ضحيةَ كابوسٍ من رَغَباتْ .

رَغَباتٌ كانَتْ تَدْفَعُني أنْ أتَسَلَّلَ نحو القَبْوِ ، وفيهِ كنتُ أَعُبُّ نَبيذًا ، وأَعُبُّ نَبيذًا ، وهناكَ تَمَنَّيْتُ لنَفْسي ألا تَصْحُوَ من تلكَ السَّكَرَاتْ .

ما أقساها مِنْ لحَظاتٍ حين اكْتَشَفوني وأنا نِصْفُ مُفِيقٍ ، أَشْعَثُ ، مُرْتَجِفٌ .. أحتاجُ ولو لقليلٍ من عَطفٍ . عومِلْتُ كَفأرٍ في مِصْيَدَةٍ . عَبَثًا كُنْتُ أحاولُ ألا أَسْمَعَ منهم شيئًا ، ألا أرفعَ رأسِي نَحْوَ وجُوهٍ تَنْهَرُني بالنَّظَراتْ .

لَكأنِّي لُذْتُ بِما أمْلِكُهُ مِنْ سُكْرٍ حتى أهرُبَ مِنْ تلكَ اللحظاتْ .

كان الدَّيْرُ كِيانًا مُنْعَزِلاً في قِمَّةِ أرضٍ عالِيَةٍ تَسْتَقْبِلُ أمطارًا ، وثُلوجًا ، ورياحًا .. والصيفُ إذا جاءَ فلا يَمْكُثُ إلا بِضْعَةَ أيامْ .

كيفَ لِمِثْلي أنْ يَتَحَمَّلَ أحوالَ مَشَقَّتِهِ وأنا إنْ هبطَ الليلُ علىٰ قلبي لا يَعْرفْ كيف ينامْ ؟

حينَ طُرِدْتُ وصارَ الدَّيْرُ ورائي أحْسَسْتُ بأرواحِ القِدِّيسينَ تُعاتِبُ روحي . هي أحزانٌ لن تَتْرُكَني أبدًا ، ومن العارِ عَلَىٰ روحي أنْ تَتَخَلَّصَ من هذي الأحزانْ .

أين سأذْهَبُ ؟! إنْ عُدْتُ إلى بَيْتي
وأنا مَطْرودٌ سأرَى أسَفًا في وجْهِ
أبي . إنِّي أتَخَيَّلُهُ .. سَتُداهِمُهُ حَسَراتٌ
قد تَجْعَلُهُ يَذْوِي ، ويموتْ .

ما أطْيَبَهُ .. كنَّا – وأنا طِفلٌ – نَمْضي
للقُدَّاسِ فأبْكي من فَرْطِ الرَّهْبَةِ .
ها لَوْحاتٌ تَدْخُلُ قلبي ، وأبي كانَ
يُراقِبُني ، والأنغامُ قدِ اتَّحَدَتْ بالإنْشادِ ،
وراحَتْ صاعِدَةً للمَلَكوتْ .

يُـــومِـــئُ لـــي أنْ أَرْفَـــعَ رأسِـــي لأرَىٰ
كُبْرَىٰ الـلـوحاتْ .

يَـهْـمِـسُ فـي أُذُنِـي " انْـظُـرْ إنَّ الـربَّ
لأجْـلِـكَ مَـصْـلـوبْ " .

بَـعْـدَ قـلـيـلٍ مِـن أعـوامٍ قُـلْـتُ لَـهُ
وأنـا أَتْـرُكُ خَـلْـفـي أيـامَ مُـراهَـقَـتـي
وأحـاولُ أنْ أَبْـدُوَ شـابًّا : "مـا عـادَ أمـامـي
غَـيْـرُ طـريـقِ الـرُّهْـبـانْ " .

أَتَـذَكَّـرُ نَـفْسي فَـرِحـًا فـي أوَّلِ أيـامِ ذَهـابـي للـدَّيْـرِ . لـقـدْ كـنـتُ عَـلَـى ثِـقَـةٍ أنِّي فـيـهِ سـوفَ أُخَـلِّـصُ أعـمـاقـي مـن كـلِّ الشَّـهَـواتْ .

كَمْ أَتَعَجَّبُ ممَّا صِرتُ إليهِ .. ها جُـدْرانٌ تَـتَـخَـفَّـى فـي جُـدْرانٍ هي أحـيـاءُ الـفُـقَـراءْ .

غُـرَفٌ تَـسْـكُـنُـها أجـسـامٌ وهُـمـومْ .

في إحْداهـا عِـشْـتُ وحيـداً .. فـوضَـى
وملابـسُ لامِـعَـةٌ ومُـزَرْكَـشَـةٌ تـتـنـاثَـرُ
من حَوْلِي . ألبَسُها حتى أَبْدُوَ مُخْـتَـلِفًا
وأنا أَتَـجَـوَّلُ في الـطُّرُقـاتْ .

في مَـيْـدانٍ يَـزْهـو بـكَـنِـيـسَـتِـهِ صرتُ
أُغَـنِّي شِـعْـرًا دينيًّا ، أمَّـا قُرْبَ الحانات
فـشِـعْـرًا فـيـهِ حُـبٌّ عُـذْرِيٌّ يَـتَـخَـلَّـلُـهُ
بَـعْـضُ فُـجُـورٍ مُـسْـتَـتِـرٍ أو تَـحْـريـضٌ
فـأرَى الـنـاسَ قـدِ ابْـتَـسَـمـوا مِـن تـلـكَ
الإيـمـاءاتْ .

كنتُ أحاولُ ألا يَبدُوَ مِنِّي غَضَبٌ
إنْ جاءَتْني مِنْ أَحَدِ المَارَّةِ سُخْرِيَةٌ ..
أمَّا الصِّبْيانُ فَمَا أكثرَ ما يَرْمونَ
بأحجارٍ نَحْوي ويَفِرُّونَ فلا أرميهِمْ
إلا باللعَناتْ .

كُنْتُ غريبًا أحْيا بنقودٍ وَهَبَتْها
الأغرابْ .

لَـمْ أَقْدِرْ أن أتَـهَـرَّبَ من بعضِ صَعاليكِ
الـطُّـرُقـاتِ .. لـقـد طَـمِـعوا فـيـمـا
أكْسِبُـهُ .. صرتُ أُساوِمُـهُـمْ حـيـنـًا ،
وأقاوِمُهُمْ أحيانًا ، وكثيرًا ما أتَساءَلُ
قبلَ مَنامي هل ثَمَّـةَ دَرْبٌ يَجْعَلُـنـي
أمْحُـو آثامِـي وأموتْ ؟

فـإذا ما نِـمْـتُ أَرانـي بـيـنَ ظِـلالٍ
تُخْبِرُنـي " لـيس هـنـالكَ مـنْ دُنْـيـا "
ثُـمَّ تَـغِـيـبُ بـعـيـدًا وأنـا أسـألُـهـا
هـل كـلُّ المَرْئِيَّاتِ ظُـنـونْ ؟!

مُنْعَزِلاً كنتُ عن الجيرانِ فَلَم
أَتَوَدَّدْ إلا للجاراتِ المَحْرومات .

قدْ يأتيني الليلُ بواحِدَةٍ مِنْهُنَّ
فتَمْكُثُ عِندي بِضْعَ دقائقَ ثُمَّ
تَغِيبْ .

بَدَأَتْ أشواقي في حَذَرٍ تَخْرُجُ من
غَفْلَتِها لتَرَى الأشياءْ .

فـأَتَـتْـهـا أسـرارٌ ووجُـوهٌ ، وأَتَـتْـهـا أسرابُ طيورٍ ... صارَتْ أحلامي تَسْتَقْبِلُ أصواتًا في الظُّلُماتْ .

صُعْلوكٌ صادَقَني .. يَنْصَحُني أنْ أُبْقِيَ بَعْضَ نقودٍ حتى تَحْميَني من أيامِ شتاءٍ قادِمَةٍ سيَحُلُّ بها الثلجُ مكانَ المَارَّةِ في الطُّرُقاتْ .

أو أنْ أرجِعَ بَيْتي ولعلَّ أبي حينَ يَراني يَنْسَى مِنْ فَرْحَتِهِ زَلاَّتي ، وهنالكَ أبدأُ عُمْرًا آخرَ ليسَ بِهِ أشعارٌ تَسْتَرْضي الناسَ ، ولا ألحانٌ بَلْهاءْ .

يسألُني في كَلِماتٍ مُتَهَكِّمَةٍ أنْ أطلُبَ مُعْجِزَةً من أحَدِ القِدِّيسِينَ لتُنْقِذَنا .. أوَلَسْنا نَحْيا في أدْنَى الأيامْ ؟!

هـو لا يُـخْـفِـي سـرًّا ، لا يَـمْـلِـكُ إلا أسْـمـالاً ، لا يَـعْـرِفُ أيـنَ سَـتَـأخُـذُهُ الـخُـطـواتْ .

أخْـبَـرَنـي أن الـصُّـعْـلـوكَ يَـراهُ الـنـاسُ بـلا جَـدْوَىٰ ويَـرَاهُـمْ جُـبَـنـاءً مَـلْـهـوفـينَ علَـىٰ دُنـيـا ظالمةٍ تَـفْـتِـكُ بالأحـيـاءْ .

قالَ : " أنا لَسْتُ حَريصًا ، وأحِسُّ بأشباحٍ وشُخوصٍ تَتَعَقَّبُني في الليلِ فلا تَسْتَغْرِبْ أمْري إن قَتَلَتْني سِكِّينٌ أو مِتُّ من الجوعِ أو انْسَقْتُ خِلالَ خَريفٍ مُنْتَحِرًا مُنْدَمِجًا بالأرضِ ، وما تَحْويهِ من أجسادْ ".

كان قبيحًا ووَدُودًا وبعَيْنَيْهِ بَعْضٌ من إشفاقٍ . أَدْرَكَ مأسَاتي فأَراني ما كانَ يُضَلِّلُني من أوهامْ .

لا شيءَ الآن يُخادِعُني . سأُماشي أيامي مُكْتَشِفًا ما فيها من أحزانٍ ورموزٍ ، مُقْتَرِبًا ممَّا تُخْفِيهِ منْ نَشَواتْ .

أعْرِفُ أني أشتاقُ إلىٰ هَمَساتٍ لم أسمَعْها ، وجنونٍ من ألوانٍ لم أَرَها ، وحكاياتٍ تَتَحَرَّكُ خلفَ الجدرانْ .

أشتاقُ إلىٰ ناسٍ لا أعرِفُهم .. ناسٍ لا تَخْشَىٰ أن تتمادَىٰ في الأحلامْ .

الصديق

روحانِ بلا جسدينِ يَهيمانِ معًا فوقَ مياهِ البحرِ . هنالكَ شَمْسٌ حارقةٌ لا تَقْدِرُ أنْ تحرقَنا ، ومياهٌ حافِلَةٌ بَمَسَرَّاتٍ عاتِيَةٍ لا تُغْرِقُنا ، والليلُ نجومٌ تَجْتاحُ الأعلَى . تَبْعَثُنا أهواءُ الريحِ إلى الساحلِ حيثُ نصيرُ مَصِيرَيْنِ : أنا والإسكندرْ.

مِنْ أمٍّ طَيِّبَةٍ خَرَجَتْ نَفْسِي للدنيا ، والإسكندرُ مِنْ أمٍّ مُتَجَبِّرَةٍ . كانَتْ تُلْهِمُهُ أنْ يُصْبحَ معجزةَ الأزمانِ فكانَ ، ولكنَّ الرحلةَ كانت أعوامًا مِنْ فوضَى ، ومذابحَ قَدْ دَفَعَتْهُ نَحوَ مذابِحَ أخرى ، وخُيولاً أثْقَلَها طُولُ التَّرْحالِ فصارَتْ تَتَعَثَّرْ .

آمَنَ أنَّ الأرضَ جَميعًا مِلْكٌ لِرَغائِبِهِ وبهذا بَزَغَتْ مُدُنٌ ، وانْتَشَرَتْ عَبْرَ الآفاقِ مظالمُ كُبْرَى حتى غَشِيَتْهُ حُمَّى ، لِيَمُوتَ الإسكندرُ شابًّا مُغْتَرِبًا ، حُلْمًا مَنْقوصًا ، وأساطيرَ يعودُ بها جُنْدٌ تَتَقَهْقَرْ.

شَمْسُ صِبانا مَلْحَمَةُ الإليانةِ ... كلُّ الأصواتِ أناشيدُ ، وصَخْرُ الأرضِ تهاويلُ . رأينا أنغامَ الشِّعْرِ تُسَيِّرُ آلهةً ، وتُقِيمُ حروبًا ، وتُعَطِّلُ أحلامًا مِنْ نارٍ . إنَّ الأحلامَ بقلبِ صَديقي راحِلَةٌ وبقَلْبي تَتَمَهَّلْ .

عَلَّمَنِي أنْ أركبَ في لَحَظاتٍ فَرَسًا ، وأُسَدِّدَ رُمْحًا فإذا جاء الليلُ يُعَلِّمُني أنْ أَسْكَرْ .

عَيْناهُ عَشَراتُ الأحوالِ . رأيتُ وراءَهما أشواقًا هادِرَةً ، وكواكبَ راحلةً . لا شيءَ سيوقِفُهُ . كنتُ أراهُ مخلوقًا من روحِ البحرِ : عواصفَ قد بَزَغَتْ من عاصِفَةٍ هائلةٍ تَتَفَجَّرْ.

في القصرِ المَلَكِيِّ تلوحُ تماثيلُ العُظَماءِ مُسَرْبَلَةً بهمومٍ لا أعْرِفُها ، والجدرانُ تبوحُ بفَيْضِ نقوشٍ ، وحروبٍ ، ووجوهٍ – كوحوشٍ في الأسْرِ – تحاولُ أنْ تَتَذَمَّرْ.

كانَتْ نَفْسِي طَيْفًا مَنْسِيًّا في تلكَ الأُبَّهَةِ القُصْوىٰ . ما كُنْتُ سِوَىٰ ضَيْفٍ أَمْضي وأعودُ فأحيا ساعاتٍ أسمعُ أشجانَ صديقي . لاحَتْ في عَيْنَيْهِ الأيامُ مسافاتٍ وبلادًا لابدَّ وأنْ يَغْزُوَها .. قالَ " كأني أسمعُ أصواتًا في الآفاقِ تنادي ... تَدْعُوني أنْ أَمْضيَ حتىٰ آخرِ هذي الدنيا ثم أعودَ إلَهًا مُنْتَصرًا ... تَتَبَدَّلُ من حَوْلي الناسُ ولا أتَبَدَّلْ "

كان رهيبًا وأنا أتساءلُ أين أنا ؟ ولماذا لا أهـرُبُ من نارِ صداقتِـهِ ؟ هو مأسورٌ في البَـحْـثِ عن المَـعْـنَى الكـامــنِ في المَجْدِ .. وها لحظـاتُ السُّـكْرِ تُجَلِّـلُهُ فيحاولُ أنْ يَـتَـحَـرَّرْ.

جارِيَةٌ كالخَمْرِ تَصُبُّ لنا الخَمْرَ . قد احْتَرَقَـتْ روحي من فَـيْضِ الخَمْرينِ ، وكـان وجـودُ الليلِ يُـدَارِي أشــواقــي ، وأنا قِـنْـدِيـلٌ مُنْطَفِـئٌ ، وأمامي الإنسانُ الجَـوْهـرْ.

هل أَضْمَرْتُ لَهُ شيئًا مِنْ حَسَدٍ ؟ ما كنتُ جَديرًا أن أصبحَ نِدًّا . غَنَّيْتُ بصوتٍ كورودٍ ذابلةٍ فاحْتَدَمَتْ أحزاني . هل كان مُحَيَّاهُ مِنِّي يَسْخَرْ؟!

كنتُ أراهُ يَمْتَلِكُ الأشياءَ جميعًا : نَفْسًا هائلةً ، وأبًا مَلِكًا منتصِرًا ... أمّا الأُمُّ فنيرانٌ حمقاءُ تَرَىٰ في الإبنِ كِيانًا قُدْسِيًّا أكبرْ.

لا أَتَـذَكَّـرُ كيف بِـفِـعْلِ الخمـرِ غَـفَـوْتُ
قـلـيـلاً ثـمَّ أَفَـقْـتُ عَـلَـى كَـوْنـي فـي
جَنَباتِ القصرِ أحاولُ أنْ أتـجـوَّلْ .

أَوْصَـلَـنـي سُـكْـري وحَـنـيـنـي لـلـمـجـهـولِ
إلـى بَـهْـوٍ ، ثُـمَّ إلـى صـمـتٍ فـيـه
وَسْـوَسَـةٌ فَـتَـقَـدَّمْـتُ بطيـئًا ، فَـسَـمِـعْـتُ
حـوارًا كـان مـؤامَـرَةً فـاسْـتَـيْـقَـظْـتُ
خـلال ثـوانٍ مِـنْ سُـكْـرِي ، وتـضـاءلـتُ
بِـجِـسْـمِـي ، ووَقَـفْـتُ وراءَ سِـتـارٍ أخـشَـى
أن أتـنـفَّـسْ .

إنْ شَعروا بوجودي كيف سأقنِعُهُم
أنِّي لا أتجسسْ ؟

إنْ شَعروا بوجودي أُقْتَلْ.

صِرْتُ كأني تِمْثالٌ يَتَمَلْمَلْ.

ثَمَّةَ مَنْ يتآمرُ في القصرِ عَلَى
قَتْلِ المَلِكِ العائشِ في غَفْلَتِهِ .
عَزَلَتْهُ أنوارُ الأمجادِ كثيراً عن أحوالِ
بِطانتِهِ ، عن أسرارٍ في مِخْدَعِهِ ...
ما عاد يحسُّ بأَحقادِ عيونٍ تَتَخَفَّى
خلفَ قواريرِ العِطْرِ ، وأعوادِ
العَنْبَرْ .

ما هذا الليلُ؟ وما تلك الأشباحُ بِنَفْسي؟ ولماذا قلبي صوتُ نحيبٍ يَتَكَرَّرْ؟

أَجْزِمُ أنَّ وراءَ مؤامرةِ القَتْلِ نموراً مُتَحَفِّزَةً تَتَجَمَّعُ في نَفْسٍ واحدةٍ هي أُمُّ الإسكندرْ.

بعد ثوانٍ شَعروا بوجودي إذ كنتُ أحاولُ أنْ أَتَسَلَّلْ.

فَوَجَدْتُ ثلاثةَ حُرَّاسٍ يَسْتَبِقُونَ إلىٰ طَعْنِي فَتَحَوَّلْتُ نَزِيفًا يتباطأُ فوقَ المَرْمَرْ.

وأنا في آخرِ أنفاسي جاءتْني رؤيا ... ها شَمْسٌ غاربةٌ تتلاشَىٰ قائلةً لَنْ أرجعَ بعدَ الآنَ وقد صرتُ بقايا أنوارٍ وجُزَيْئاتٍ تَرْحَلْ .

صار الإسكندرُ مِنْ بعدِ أبيهِ مَلِكًا ... هائلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ أجناسُ ضحاياهُ ولَعَلِّي أَوَّلُهمْ .. أمَّا آخرُهُمْ فهْوَ الإسكندرْ.

صاحب الأوكار

ما أكْثَرَها مِنْ أمتارٍ بين فَمِي ونهايةِ ذَيْلي ... لستُ سِوَى الدَّيناصورْ.

جَبَلٌ يَمْشي مَزْهُوًّا . يَحْسِدني مَنْ هُمْ أَصْغَرُ مني حَجْمًا . خُطواتي دَبْدَبَةٌ ، وعَدُوِّي مدحورْ .

تحيا في جلدي مخلوقاتٌ شَتَّى لا يُمْكِنُني أنْ أطردَها . لكأني أسْمَعُها تتكاثرُ هانئةً في أنحائي ، وتطيرُ قليلاً لتعودَ إلى مأواها الدائمِ في جِسْمي المَسْكونْ.

أَمْقُتُها ، وأعايشُها مُضْطَرًّا وأنا لستُ أراها فإذا نمتُ أحسُّ بها تتحداني إذ تَمْتَصُّ دمائي . يا لي مِنْ جَبَلٍ مهزومْ.

أحيانًا تحيا حشراتٌ في أُذُني . هذا يجعلُني أَجْأرُ كالمجنونْ.

هل جاءتني أيامٌ من يأسٍ فَتَمَنَّيْتُ بِها أنْ أتضاءلَ حتى أصبحَ أصغرَ منها ... حينئذٍ أحيا في أمنٍ في جسمِ أخي الدَّيناصورْ؟

المـــرآة

قِـرْدٌ يُـمْـسِـكُ غُـصْـنـًا بِـيَـدٍ واحـدةٍ
فَـرِحـًا يَـتَـدَلَّـى فَـرَآنـي أمْـشِـي فـي
حَـذَرٍ بَـيْـنَ الأشجارِ ، وأخْـشَـى أخطارًا
تَـحْـيَـا بَـيْـنَ الأغـصـانْ .

خُـطُـواتي مُـثْـقَـلَـةٌ بِـطُـمُـوحاتي ووساوِسِ
ذاتي . صِـرْتُ غَـريبًا عنْ أيَّـامي الأولَى
هَـشًّا . أتَـخَـوَّفُ مِـنْ أرْضٍ تَـتَـوَعَّـدُنـي
بالـعَـثَـراتْ .

أَقْنَعَني أصْحابي أنْ أمْضِيَ أيامًا مَعَهُمْ في غاباتِ الهِنْدِ فَلُذْتُ بِصُحْبَتِهِمْ وتَرَكْتُ ورائي ثَلْجَ بلادي ، وفَتَاتي ، ودِراساتي في تاريخِ الرُّومانْ .

قالوا : " سَتَرَىٰ أمْكِنَةً لَيْسَتْ تَشْعُرُ مُنْذُ دُهورٍ بوجودٍ للأزمانْ .

بَعْدَئِذٍ تَرْجِعُ للأوراقِ المُنْسَابَةِ في أنْحاءِ الماضي ، والمَمْلُوءَةِ بالتَّخْمِيناتْ " .

ها هوَ يَقْفِزُ مُقْتَرِبًا أمتارًا مِنِّي .
عَيْنَاهُ سُخْرِيَةٌ تَتَشَفَّى مِنْ خَيْبَةِ
جِسْمي . يَنْسابُ خَفيفًا وأنا أمْضِي
نَحْوَ مَسَالِكَ تُفْضِي لمَسَالِكَ أخرى.
قَدْ ضِعْتُ خلالَ نباتاتٍ أتساءَلُ
أينَ الأصحابْ .

أنَسُونِي ؟ أمْ ظَنُّوا أنِّي أعْرِفُ
أينَ أنا ؟ كيفَ أعُودُ إليهِمْ ؟
آهٍ .. لا أمْلِكُ إلا أنْ أُرْسِلَ بَعْضَ
الصَّيْحاتْ .

مـازالَ الـقِـرْدُ يُـتَـابِـعُـنـي . هل يَـشْـعُـرُ مِـنْ لَـفَـتَـاتِـي ومَـخَـاوِفِ وَجْـهي أنِّـي أحَـدُ الأغرابْ ؟!

يَـبْـدو لـي مُـعْـتَـادًا أنْ يَـتَـتَـبَّـعَ مَـنْ صـارَ وحـيـدًا مِـثْـلـي فـيُـشَـاكِـسَـهُ مُـقْـتَـرِبًا مُـبْـتَـعِـدًا . لَـكـأنَّ ضَـيـاعـي يَـجْـعَـلُـهُ مُـغْـتَـبِـطًـا ، وقـديـمًـا كـانَـتْ مِـنْ ألـعـابِ الـرُّومـانِ أُسُـودٌ تُـطْـلَـقُ جَـائِـعَـةً كي تَـتَـقَـاتَـلَ حـتـىٰ المـوتِ مـع الأسْـرَىٰ والسُّـجَـنَـاءْ .

مِحَنٌ ودِمَاءٌ مُتَدَفِّقَةٌ يَفْرَحُ آلافُ الناسِ برؤيتِها ، والأحمقُ مَنْ يَمْلِكُ بعضًا مِنْ إشفاقْ .

عَيْناهُ تَلْتَمِعَانِ بألوانٍ لا أعرِفُها . هل حَقًّا أجدادي كانوا مِثْلَكَ عَبْرَ الأشجارِ يَهِيمونَ ، ولَسْتُ سوىٰ أحَدِ الأحفادْ ؟!

يُثْقِلُني ما أمْلِكُ مِنْ كَلِماتْ ؟!

كَمْ يَرْغَبُ جِسْمي الآنَ بأنْ يَغْدُوَ
مِثْلَكَ مُنْتَقِلاً عَبْرَ الأشجارِ
طَلِيقًا ... حِينَئِذٍ أصْرُخُ مُنْتَشِيًا
وأنا أتَطَايَرُ في الأجواءْ .

فكأنِّي ما عِشْتُ هنالكَ عَبْرَ مَدائِنَ ...
فيها الناسُ تَلُوحُ مُسَالِمَةً ، ولَها
أعماقٌ لَمْ تَتَخَلَّصْ مِمَّا في الغاباتِ
مِنَ الرَّغَباتْ .

هـا فَـأرٌ يَـجْـري فـي ذُعْـرٍ ، وهـنـالِـكَ أفْـعى تَـتَـعَـقَّـبُـهُ ثـمَّ اخْـتَـفَـيَـا فـي خَـشْـخَـشَـةِ الأوراقْ .

أينَ الأصحابُ ؟ وهل حَـتْـفِـي سيكونُ هنا حيث الأشـجـارُ عَـلاقـاتٌ مُـتَـشَـابِـكَـةٌ ، ومَـخابِـئُ فيها أحياءٌ أشْـعُـرُها تَـتَـرَبَّـصُ بالأغـرابْ ؟

ماذا يَمْنَعُني أنْ أصْرُخَ ؟ هلْ أخْجَلُ إنْ أصْحابي وجَدوني أنْ أبْدُوَ في أعْيُنِهِمْ مُرْتَعِبًا ؟ ما أكثَرَ مَا في نَفْسي مِنْ أبوابٍ مُغْلَقَةٍ ومَحَاذيرَ ، ومَا أحمَقَني إنْ لَمْ أصرخْ وأنا في الغاباتْ .

ما عُدْتُ أرَاهُ . هَلْ لاحَظَ أنِّي لَسْتُ حَفِيًّا بِتَطَفُّلِهِ ؟ أمْ مَلَّ وآثَرَ أنْ يَتْرُكَنِي لِضَيَاعِي واسْتِغْرابي مِنْ هَيْمَنَةِ الحَرِّ عَلَىٰ كلِّ الأشياءْ ؟

كيفَ انْسَقْتُ وراءَ نَصيحةِ أصحابي ؟ كُنْتُ جَديرًا أنْ أجْعَلَ أيامي هَذِي تَحْتَ سَماءٍ أخرَىٰ ، فَوْقِي شَمْسٌ أخرَىٰ تُلْقِي أنوارًا هائلَةً فَوْقَ الأهرامْ .

مُنْذُ قُرونٍ حَكَمَتْ مِصْرَ امْرَأةٌ قَدْ خَبَرَتْ ما فيها مِنْ ذَهَبٍ ، ومَعَانٍ ضَاعَتْ ، ورجالٍ فَقَدوا بَعْدَ مرورِ الأزمانِ بَسَالَتَهم . هَلْ كانَتْ مِصْرُ تُحاولُ حينئذٍ أنْ تَتَخَلَّى عَنْ إرْثِ الأجْدادْ ؟!

لَقَدِ انْصاعَتْ لامْرَأةٍ مَزَجَتْ بينَ الحِكْمَةِ والمَكْرِ وبينَ الشَّهواتْ .

أنْثَى، طَامِحَةٌ عَرَفَتْ كيفَ تُقَلِّلُ مِنْ أطماعِ الرومانِ بمِصْرَ فمَا بَخِلَتْ بِمفاتِنِها . كانَتْ تَرْشُو سَيِّدَ روما بليالي العِشْقِ . لقَدْ كانا في ظَنٍّ أنَّ العِشْقَ الزائلَ سوفَ يُوَحِّدُ بينَ الشَّرْقِ المِصْرِيِّ الهائمِ في الشمسِ وبَيْنَ الرومانْ .

مَرَّتْ أعوامٌ تَحْمِلُ أقداراً ومَكَائِدَ حتَّى
صارَ العاشقُ مهزوماً مُنْتَحِراً ، والخِزْيُ
لَهُ رائِحَةٌ تَتَمَسَّحُ بالأجسادْ .

إنِّي أَتَخَيَّلُهَا تَنْظُرُ في حُزْنٍ
للمِرْآةِ طويلاً ... تُحْصِي في أسَفٍ
ما قَدْ وَلَّى مِنْ أنوارِ أنوثَتِهَا ،
والأعداءُ عَلَى الأبوابْ .

كابوسٌ يَجْعَلُها خائِفَةً : مَنْ هَزَموها سوفَ يَعُودونَ بِها فَرِحينَ إلى روما جارِيَةً في مَوْكِبِ نَصْرٍ ، وهناكَ سَيَفْخَرُ مَنْ أسَرُوها بِتَرَدِّيها ، وبِمَا سوفَ يَلُوحُ بِعَيْنَيْهَا مِنْ أهوالْ .

خافَتْ فانْصاعَتْ لمَخاوِفِها فانْتَحَرَتْ . لقدِ اسْتَلْقَتْ عارِيَةً تارِكَةً ثُعْبانًا يَلْدَغُها . إنِّي أتَخَيَّلُها صَدْرًا يَنْبِضُ في ذُعْرٍ مُنْتَظِرًا سُمَّ الثُّعْبانْ .

سَمِجًا وجَريئًا كانَ ... لقد غافَلَني ، وخِلالَ ثَوانٍ ها هو يَخْطَفُ قُبَّعَتي ثُمَّ تَصاعَدَ مُخْتَفِيًا وأنا في غَيْظٍ أسْمَعُ ما يُرْسِلُهُ مِنْ أصواتْ .

صِرْتُ ضَحِيَّتَهُ ، وضَحِيَّةَ شَمْسٍ تَجْعَلُني أخْشَى أنْ أدخُلَ في الهَذَيَانْ .

لا أتَذَكَّرُ مَنْ قالَ بأنَّ الدنيا تُعْطِي للمُتَهَتِّكِ والظالِمِ أكثَرَ ما فيها مِنْ نَشَواتْ .

وقديمًا كانَ الرُّومانُ يُبِيدُونَ شعوبًا ... إنَّ البُلْدانَ غَنائِمُ مِنْ ثَرَواتٍ وعَبِيدٍ وسَبَايَا . هي أطماعٌ سَمَّوْهَا أمجادًا . هل يَشْعُرُ ذاكَ القِرْدُ الآنَ بتلكَ الأمجادْ ؟!

لستُ يَئُوسًا ، وسأخْرُجُ مِنْ أشجارٍ تَبْدو لي أمواجًا مُتَداخِلَةً .. بَعْدَئِذٍ سَوْفَ يَراني الأصحابْ .

ضوء الأغوار

مُـنْـذُ مَـتَـىٰ والـشِّـعْـرُ يُـحَـرِّرُنـي إذْ
يأسِرُنـي في الإسراءْ .

فـكـأنِّـي أَمْـضِـي فـي غَـيْـبٍ ، وبِـهِ
روحي قد غـفَـلَـتْ فَـنَـسِـيـتُ حـيـاتي
يَـوْمـًا كَـوْنِـيًّا فَـتَـأخَّـرْتُ سِـنـيـنـًا
عـن دُنْـيـايَ ، وضـاعَـتْ مِـنِّـي آلافُ
الأزهـارْ .

مُـنْـذُ مَـتَـىٰ والأنغامُ تُماشِـيـنـي .. تتأخَّـرُ
فـي الإيـقـاعِ قـلـيـلاً فـتُـرِيـنـي شُـهُـبـًا
مُـتَـباعِـدَةً ، ومـصائرَ حالِـمَـةً ، وحضاراتٍ
مـازالـت تَـبْـعَـثُ بـالأصـداءْ ؟!

أزمانٌ أَسْتَكْشِفُها فَتُكاشِفُني . قلتُ سأجْعَلُها تَتَوَحَّدُ في الإيقاعِ فَلاحَتْ مُتَجَافِيَةً حِينًا ، مُتَبَاعِدَةً حِينًا فأَخَذْتُ أَخُبُّ إلَيْها ، وأَمِيلُ عَلَيْها حَتَّىٰ أجْعَلَها أقداراً ومصائِرَ لا تَخْشَىٰ أنْ تَحْيَا في الأشعارْ .

ما أكْثَرَها مِنْ أزمانٍ ... كيف لِمِثْلي أنْ يَتَمادَىٰ فيها وأنا أملِكُ ذاكِرَةً لا تَسْتَبْقي إلا أنغامًا ، وقليلاً من أسماءْ .

خادَعَني الليلُ فأَوْهَمَني أنِّي أَقْدِرُ
أنْ أَصْنَعَ تِمْثالاً في نورِ البَدْرِ ،
ولَمَّا حاصَرَني سَحَرٌ عاتَبَني قَلْبي :
كيفَ سَيَبْدو التِّمْثالُ إذا كَشَفَتْهُ
الأنوارْ ؟!

ما أَضْأَلَهُ ضَوءًا يأتي للعائِشِ في
الأغوارْ .

الكتاب الثاني

الأصحاح المهجور

في البَدْءِ ابْتَدَأَ الكَونُ يُسَارِعُ نَحْوَ البَدْءِ ، وما بَيْنَ البَدْءَيْنِ هناكَ مسافاتٌ مُتَبَاعِدَةٌ مِنْ أزمانٍ ، وصِدَامَاتٌ بَيْنَ نُجومٍ .. مَنْ في ذاكَ التِّيهِ يُحِسُّ بأشجانِ ذَهابِ الأشياءْ .

أينَ أنا والكَونُ مَجَرَّاتٌ هائِمَةٌ عَبْرَ
مُحيطاتِ فَراغٍ أَسْوَدَ يَمْكُثُ في
صَمْتٍ أَسْوَدَ مُنْعَزِلاً عن آلافٍ
مِنْ سُدُمٍ تَسْرِي عَبْرَ أغانٍ هائِلَةٍ
سَوْداءْ .

هل كانَ هُنالِكَ مِنْ بَدْءٍ أَمْ أنَّ
الكَونَ بِداياتٌ مُتَنَاثِرَةٌ ، والناسَ
بِداياتٌ مُتَدَاخِلَةٌ تُولَدُ مِنْها أقدارٌ
هَوْجَاءْ .

وقَـدِيـمًـا قَـبـلَ وجـودِ الأحـيـاءِ تَـلاقَـتْ
فـي الأرضِ حُـشُـودُ خَـلايـا تَـتَـمَـازَجُ
في صَمْتٍ مُتَنَاغِمَةً حِينًا ، مُتَصَارِعَةً
حِـيـنًـا . ما كانَ هـنـاكَ عـيـونٌ تَتَعَجَّبُ
مِـنْ شُـهُـبٍ راحِـلَـةٍ .. أمَّـا البَـحْـرُ فكانَ
خَـلاءً ... لـيـسَ يُـحِـسُّ مَـهَـابَـتَـهُ أحَـدٌ ،
والـغَـيْـبُ يُـخَـبِّـئُ في ظُـلْـمَـتِـهِ آلافَ
الأسْـمَـاءْ .

ذلِكَ كانَ يَقِينًا مِنْ أمْكِنَةٍ صارَتْ تَتَغَيَّرُ في بُطءٍ حتى ضاعَتْ . بَعْدَئِذٍ أحْسَسْتُ بنَفْسي تَحْيَا في خوفٍ مُنْذُ مَلايينِ الأعوامْ .

فذَهَبْتُ إلى أشْجَارٍ صِرْتُ أُسَمِّيها الجَنَّةَ . كنتُ بِها غَضًّا أبْحَثُ عن أنغامٍ ، ومَعَانٍ ... أمْشِي فأُحِسُّ عيونًا تَنْظُرُ لي مِنْ بَيْنِ الأغصانْ .

عُـرْيَـانـًا كـنـتُ ومُـكْـتَـسِـيـًا بِـظِـلالٍ
تَـتْـبَـعُـنِـي ، والأوقاتُ ظِـلالْ .

فَـرَأَيْـتُ فـتـاةً تَـبْـحَـثُ عَـنِّـي .
أعـمـاقـي نـارُ شُـمُـوعٍ فَرَأَتْـنـي . لَـمَّـا
اقْـتَـرَبَـتْ مِـنِّـي ، وانْـدَمَـجَـتْ بضُـلُـوعي
أخَـذَتْ تُـشْـعِـلُ ناري مُـتَـبَـاطِـئَـةً وأنـا
أسْـتَـغْـرِبُ أنِّـي أمْـلِـكُ هـذا الـفَـيْـضَ
مِـن الـنَّـشَـوَاتْ .

أحْسَسْتُ بِها جُزْءًا مِنْ جِسْمِي .
هل صارَتْ مِنِّي ؟! كيفَ إذَنْ عُدْنَا
اثْنَيْنِ وكيفَ انْسَلَّتْ مُتَبَاعِدَةً في
لَحَظَاتْ ؟!

ما كانَتْ نَادِمَةً فلِماذا قالَتْ
ماكِرَةً إني نادِمَةٌ ثُمَّ تَنَاءَتْ
وتَنَاءَتْ . أشْعُرُها تَمْضِي نَحْوَ ظلامٍ
مَحْضٍ ليسَ بِهِ مِنْ أيامْ .

ها هِيَ تَمْشِي بَيْنَ خَمَائِلَ ساكِنَةٍ .
آهٍ ما عادَتْ عَيْنَايَ تَرَاهَا فأحاولُ
أنْ أسْمَعَ أصواتَ الخُطُواتْ .

أَخَذَتْ مِنِّي ما يَجْعَلُها أُمًّا ، وغُرُوري أَوْحَى لي أنِّي آدَمُ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِي كلُّ الأبناءْ .

ما إنْ قُلْتُ لنَفْسِي إنَّ الدنْيا تَبْدَأُ مِنِّي حتَّى لاحَتْ ناسٌ مُتَنَاثِرَةٌ . كلٌّ مِنْهُمْ ظَنَّ بأنَّ الدنْيا تَبْدَأُ مِنْهُ . أينَ أنا ؟ ها أشجارٌ ، ونُفُوسٌ ، وبِدايَاتْ .

الهارب

هاجَرْتُ من الدنيا ، ولَجَأتُ إلىٰ كهفٍ لا أخْشَىٰ ما فيهِ من أحياءٍ تَتَخَفَّىٰ خائفةً من أحياءٍ تَتَخَفَّىٰ مِنِّي ، والضوءُ قليلٌ لا يَقْدِرُ أنْ يَمْضِيَ نحو الأرجاءْ .

بَعْدَ قليلٍ من أيامٍ صار الكهفُ يُوَحِّدُنا .. ما أعظمَ أن تَتَوَحَّدَ أرواحُ الأحياءْ .

هاجَرْتُ من الدنيا حتى أحْيَا مُنْعَزِلاً
مُخْتَلِيًا بالأشجارِ وبالأرضِ ، وأرنو
ساعاتٍ نحو سماءٍ أتَمادَى فيما
تُرْسِلُهُ من ألوانٍ ، أتَضَاءلُ حين
أراها حافِلَةً بهِضابِ سحابٍ فإذا
ما جاء الليلُ أحاولُ أن أسْتَشْعِرَ
آلِهَةً تُصْغِي لهُمومِ الإنسانْ .

لا أمْلِكُ إلا ذاكِرَةً تَحْفَظُ أسفارًا .
ما عادَ كِياني غيرَ ذَهابٍ وذَهابٍ
نحو معانيها فإذا ما أبْطَأتُ أراني
أبحثُ عمَّا فيها من إنشادْ .

يَحْمِينِي سِفْرُ السِّحْرِ فَمَا يَقْدِرُ شَيطانٌ أن يَدْخُلَ جِسمي . قوةُ نَفْسي تُبْعِدُهُ فيَفِرُّ بعيدًا ، وأنا أشْعُرُهُ يَتَماوَجُ في الأجواءْ .

أبْحَثُ عن صَمْتٍ يَجْعَلُني أُدْرِكُ ذاتي فأحاولُ أن أتخلَّصَ ممَّا فيها من رَغَباتْ .

ذاكَ طريقٌ تَسْرِي فيهِ روحي ذاهبةً للروحِ الأعلى .. ولعلِّي كنتُ هنالكَ في أزمانٍ أخرى قَطْرَةَ ماءٍ فلماذا أخْشَى أن أفنَى في نهرٍ أو كنتُ شعاعًا فلماذا لا أمْضِي مُخْتَفِيًا في الآفاقْ ؟!

أتَوَحَّدُ في الأوحدِ مُنْفَصِلاً عن دنيا تَتَعَدَّدُ فيها الأسماءْ .

صارتْ نَفْسي تتناسَى جوعًا يَتَهَدَّدُني، وصُنوفًا من حَشَراتٍ تُؤذِيني . صارتْ تَتَجاهَلُ أشواكًا تُدْمِيني وأنا أمشي في حَرِّ الغاباتْ .

ألأنَّ هُجوعي كانَ بكهفٍ صارتْ
قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ تُلِحُّ على
قلبي؟! لكأنِّي أحسُدُهُمْ إذ جاءتْهُم
عَشَراتُ الأعوامِ فَلَمْ تَقْدِرْ أن
توقِظَهُمْ .. ما عادتْ تلكَ الأجسامُ لها
صِلَةٌ بالأعوامْ .

أحياءً أمواتًا يَنْسابونَ من الأحلامِ
إلى الأحلامْ .

أفْئِدَةٌ نابِضَةٌ في مَلَكوتِ الغَفَواتِ قدِ
انْعَزَلَتْ عن مَلَكوتِ الإصغاءْ .

هَـجَـروا ماضـيَـهم وانْـدَسُّـوا في نـومٍ يَـبْدو أبَـدِيًّا . إنـي أشْـعُـرُهُـمْ يَـمْضـونَ إلىٰ نَـشَـواتٍ تَـجْـعَـلُـهُـمْ ينتـصـرونَ خِـلالَ الأحـلامِ علىٰ مَـنْ ظَـلَـمـوهُـمْ .. ولـعـلَّ الأحلامَ قدِ امْـتَـلأتْ بالأصـواتْ .

كـان الكـهـفُ يُـجافِـي نَـزَواتِ الشـمـسِ فـظـلَّـتْ أنْـفُـسُـهُـمْ لا تَـرْغَـبُ أن تـتـبـاعَـدَ عـن سِـحْـرِ الإغـفـاءْ .

مـا عَـرَفُـوا أنَّ الأعـوامَ تَـمُـرُّ عـلى الناسِ وتَنْسَاهُمْ ، والنومُ يُباعِدُهُمْ ويُباعِدُهُمْ عن دُنْياهُمْ . ماتَ الأحبابُ وماتَ الأعداءْ .

أشْعُرُهُمْ .. قَدْ مَرَّتْ أزمانُ النومِ عليهم كسُوَيْعاتٍ من إسْراءْ .

لمَّا عادوا للدُّنْيا ظَنوا أنْفُسَهم أحياءً . ظَنوا أنَّ الأيامَ هي الأيامْ .

مَـرَّ عـلـى قـلـبـي صُـبْـحٌ كـنـتُ بِـهِ
أتـجـاهـلُ آلامًا في جِـسْـمي ، وأحاولُ أنْ
أنْـأى عن بعضِ الأشـواقْ .

مَـنْ هـذا الـعـابـرُ ؟! كـان أخـي الأصـغـرُ
يَـبْـدو كالـضـائـعِ .. هـل جـاءَ لـيَـبْـحَـثَ
عَـنِّـي ؟! هـل أتَـخَـفَّـى عـنْـهُ أمْ أجْـعَـلُـهُ
يَـشْـعُـرُ بـي ويَـرانـي؟ نـاديـتُ بـصـوتٍ
يَـتَـخـاذَلُ في حَـلْـقـي فَـرآنـي . نَـظْـرَتُـهُ
كـانـتْ تَـسْـتَـغْـرِبُـنـي . هـل صـرتُ غـريـبًـا
عَـمَّـنْ يألَـفُـنـي ، وازْدَادَ نُـحُـولي فـرأيـتُ
بـعَـيْـنَـيْـهِ الإشـفـاقْ ؟!

هو مَن كانَ حبيبي ونَقِيضي ..
يَهْزَأُ بالأقداسِ ، ويَسْتَغْرِبُ أني أشْعُرُ
أسرارًا كامِنَةً في المَوْجوداتْ .

كان بتِلْكَ الأيامِ يَجُوسُ كَطَيْفٍ
في نَفْسي إذْ أسْمَعُهُ وهْو يُغَنِّي
عِنْدَ حُلُولِ البَدْرِ ... أخي العاشقُ ،
والمارِقُ ، والمُسْرِفُ في الإلحادْ .

والآنَ تَـلاقَـيْـنـا .. لـكـأنَّ الغـابـةَ بَـيْـتـي
وهْـو الـزائـرُ يَـعْـرِفُ عـن بَـيْـتـي أكـثـرَ
مِـنِّـي . بِـنَـباتٍ ضَـمَّـدَ بـعـضَ جِـراحـي ،
وأنـا أكْـتُـمُ في صَـدْري الآلامْ .

قـد حـاولَ أنْ يُـوعِـزَ لي أنِّـي هـاجَـرْتُ
إلى ماضٍ يَـتَـباعَـدُ عـنَّـا فـكـأنـي صِـرْتُ
أحـاولُ أنْ أُوقِـظَ مَـنْ أحـبَـبْـتُ مِـنَ
الأمـواتْ .

قال : " هي الناسُ قديمًا كانت تَتَعَجَّبُ من ألغازٍ تَبدو في كلِّ الأشياءِ ، وتَخْشَى مَوْتًا يَنْسابُ إلى الأحياءِ ، ولا تَقْدِرُ أنْ تَتَجَنَّبَ ظُلمًا في دنيا تَسْرِي فيها الأهوالْ .

فاخْتَلَقوا آلهةً جَعَلُوها خالِقَةً . قدْ وَجَدوا فيها أمْنًا وعَزاءً ، وأشاعوا أنَّ لها حِكْمَتَها ثم أتَتْ أجيالٌ فأضافَتْ قَصَصًا ، وأساطيرَ، وتَشْريعاتٍ قدْ دَفَعَتْ بالناسِ إلى أن تَدْخُلَ طائعةً في الأغلالْ .

هـي أقـوالٌ نَـتَـوارَثُـها عـن بَـشَـرٍ جَعَـلوها بـمـرورِ الأعـوامِ مُـقَـدَّسَـةً ... أَخْـبِـرْنـي هـل جـاءَ إلـى الأرضِ إلـهٌ يَحْكِـي قِـصَّـتَـهُ ؟! ولـمـاذا هـو مَشْغُوفٌ بأُناسٍ مَـمْـلـوئِـيـنَ بأطماعٍ ، مأسورينَ بأجسامٍ فانِيَةٍ ، مُنساقِينَ إلى تَـصْديقِ الكاذبِ ، والحـاكِـمِ ، والقَولِ الباطلِ إنْ جـاءَ مـن الـكُـهَّـانْ ؟!

أقـوالٌ صرتُ أَراها الآنَ لآلِـئَ زائِـفَـةً . هـل تُـؤْمِـنُ حقـًّا أنَّ هـنـاكَ يـقـيـنـًا في تـلـكَ الأوهـامْ ؟! "

قلتُ لَهُ : " إنِّي لا أَقْدِرُ أنْ أحْيَا مُبْتَعِدًا عن هذي الأقوالْ ".

لَمْ نَشْعُرْ بالساعاتِ إلىٰ أنْ صارَ الوقتُ أصيلاً ، وبِهِ الشمسُ تَلُوحُ وراءَ الأشجارِ علىٰ بُعْدِ مئاتِ الأمتارِ ، وها هي تَمْضِي للأعماقِ وفيها سوفَ تَموتْ .

بَعْدَ سُويْعاتٍ من لَيْلٍ سوف تَجِيءُ إلينا شمسٌ أخرىٰ تُشْبِهُ من ماتَتْ . أحسستُ بأنَّ هناكَ شُموسًا تُخْلَقُ مِمَّا في الكونِ من الأنَّاتْ .

لمَّا بِتْنا في الكهفِ شَعَرْتُ بخوفٍ في صوتِ أخي . أشْفَقْتُ عَلَيهِ إذْ كانَ حزينًا يَسْتَعْطِفُني أنْ أرْجِعَ للدُّنْيا فاسْتَرْجَعْتُ هُمُومًا كنتُ أظنُّ بأني لن أتَذَكَّرَها . قلتُ لَهُ : " كيفَ أعودُ إلى تِلْكَ الأشلاءْ ؟

لَسْتُ بِراضٍ عن عُمْري ... أُسْرَتُنا في ثَرَواتٍ تَحْيا ، وأبي لَمْ يَشْعُرْ يومًا بالتُّعَساءْ .

وصديقي الأوْحَدُ ما صادَقَني . كان تَقَرُّبُهُ مِنِّي مَحْضَ نفاقٍ ، وسَبيلاً يَجْعَلُهُ يَطْلُبُ من مالي ما شاءْ .

قد أهْدَرَ أسراري وتَكَلَّمَ عن أحزاني في سُخْرِيَةٍ ، وأضافَ أكاذيبَ ، وبعضَ أقاصيصَ إذا ما سُمِعَتْ جَعَلَتْ مِنِّي أحدَ البُلَهَاءْ .

أمَّا في بَيْتي فامْرَأَتي ما كانَتْ تَشْبَعُ مهما أسرفْنا في الشَّهَواتْ .

كيفَ لِمَنْ يَسْعَى أنْ يَتَعَفَّفَ مِثْلي
أنْ يُرْضِيَها ؟ صار البيتُ جَفاءً ثم
شَكَكْتُ بها إذ كنتُ أراها تَنْظُرُ
في وَلَعٍ للجارِ .. لقد كانَ مخيفًا
ضَخْمًا مُسْوَدَّ النَّظَراتْ .

إنَّ وجودي ما عادَ لَهُ صِلَةٌ بالدنيا .
ما عُدْتُ سوى ذاكرةٍ تَسْتَرْجِعُ ما
تَعْشَقُهُ من كَلِماتْ ".

لَمَّا جاءَ الفَجْرُ عَلَيْنا وَدَّعَني مُنْتَحِبًا يَسْتَغْرِبُ أمْري . راحَ إلىٰ دنياهُ ثُمَّ تَلَفَّتَ بِضعَ ثوانٍ فرَأَىٰ وَجْهي مَمْلوءًا بدموعٍ ، وورائي كَهْفٌ ... نَفْسي تَألَفُهُ ، وسأجعلُ مِنْهُ قَبْري ، ووراءَ الكهفِ أطَلَّتْ أشجارُ الغاباتْ .

العاشقان

خُنْفُسَتانِ تَهِيمانِ مَعًا في ليلٍ مُمْتَلِئٍ بالهَمَسَاتْ .

ذَكَرٌ مالَ إلى أنثى فانْتَشَيَا حتى ظَنَّا أنَّ الغابةَ مِثْلَهما سادِرةٌ في النشواتْ .

صارا جَسَدًا مُتَّحِدًا وأنا ضِفْدعةٌ جائعةٌ فمَدَدْتُ لسانًا لَزِجًا نحوهما فاخْتَفَتِ الدنيا من حولِهِما في لحظاتْ .

الكاذب

الأصنامُ أنا أَصْنَعُها.

تأتي أفْئِدَةٌ من كلِّ الآفاقِ فَيُلْقُونَ عَلَيها طاعَتَهم، ويَظُنونَ بِها روحًا خَلَقَتْهُمْ، والسَّادةُ يَزْدادونَ ثَراءً من حَجِّ الناسِ إليها.

تَمْضِي الأعوامُ على الأصنامِ فيَزْدادُ الناسُ خُشُوعًا في حَضْرَتِها، ويَقينًا بعجائبِها فإذا جاء الليلُ عَلَيْها ظَنُّوها تَسْتَدْعي أرواحَ القدماءِ حكاياتٍ، وأساطيرَ، وأصواتًا ليس هنالكَ من بَشَرٍ يَسْمَعُها.

تَـنْـســابُ نُـفُـوسُ الـنـاسِ هـروبـًا من مِـحَـنِ الدنـيـا . يَـرْتَـحِـلـونَ ولـو لـدقـائـقَ فـي أزْمِـنَـةٍ ظَـنُّـوهـا مـازالَـتْ تَـحْـيـا .

قـالـوا هِـيَ أصـنـامٌ قَـدْ خُـلِـقَـتْ مـن أصـنـامٍ أعْـلَـى، بـل قـد خُـلِـقَـتْ مـن فَـيْـضِ مَـشِـيـئَـتِـهـا وأنـا من تَـكرارِ سَـمَـاعـي هَـذي الأوهـامَ وفَـرْطِ هُـيـامِ الـنـاسِ بـهـا كِـدْتُ أُصَـدِّقُـهـا !

أَعْلَمُ أنـي مَـقْـتُـولٌ إنْ بُـحْـتُ بـأنَّ فـؤادي لا يَـعْـبُـدُها .

قد مَـرَّ الـعُـمْـرُ فـصـرتُ وحـيـدًا في بـيتٍ مُـنْـعَـزِلٍ . هاجَـرَ عـنِّي أبـنائي . ظَـنُّـوا حِرْصِي بُخْلاً ، ورأَوْا في أموالي سُحْتًا فـانْـسَـلُّـوا في لـيلِ شـتاءٍ من بَـيْـتـي . هم أغـرارٌ والصَّـحْـراءُ خَـلاءٌ لا يَـفْـنَـى .

الأشواقُ تُـقاتِـلُـني . أينَ امْرَأَتي ؟ ظَـلَّـتْ فـي كَـنَـفـي أعـوامًـا تَـشْـتـاقُ إلى الأَهـلِ وتَـبْـكِـي ثـم ارْتَـحَـلَ الأبـنـاءُ فـمـاتَـتْ مـن فَـرْطِ الـشَّـكْـوَى .

أَتَـذَكَّـرُها وأنـا شـابٌّ إذ كـنـتُ أزُورُ بـلادَ الفُـرْسِ وأمـشـي في سـوقِ الفِضَّـةِ مُـشْـتَـرِيـًا فَـرَأَتْـنـي وكـأنـي أَتَـقَـرَّبُ مِـنْـهـا .

سُـمْـرَةُ جِـسْـمـي ، وخُـشُـونـةُ جِـلـدي ، ولـسـانـي المُـتَـثـاقِـلُ تَـكْـشِـفُ أنـي جِـئـتُ من الـقَـيْـظِ غـريـبـًا يَـبْـحَـثُ عـن مـأوَى١ .

كـانـت فـي فـقـرٍ تَـحْـيَـا تَـسْـتَـعْـجِـلُ أنْ تَـغْـدُوَ زَوْجًا . هـل شَـعَـرَتْ حـيـنـئـذٍ أنـي سـأظـلُّ بـقـيـةَ عُـمْـري أعـشـقُـهـا ؟

تلكَ الأيامُ بفارسَ كانت إسْرافًا في نَشَواتٍ . أَتَذَكَّرُني كالتَّائِهِ في أسواقٍ تَخْلِبُ من يَقصِدُها .

أو كالحالمِ عَبْرَ مسافاتٍ تَبْعَثُ للرائي بَهْجَتَها .

أو كالمُتَلَصِّصِ في أحياءٍ تَحْيا في أُبَّهَةٍ ، والليلُ يُزَيِّنُها بنجومٍ وروائحِ أزهارٍ ، وهْي تُزَيِّنُهُ بمجالسِ خمرٍ وغناءٍ وأنا أَسْتَغْرِبُ نَفْسي إذ أخطو في حَذَرٍ فأراني لا شيءَ خلالَ ظلامٍ يَمْكُثُ تحتَ خَمائِلها.

فإذا جاءَ الصُّبْحُ تَلُوحُ على البُعْدِ حدائقُ كِسْرَى تَعْزِلُهُ عن أحوالِ رَعِيَّتِهِ . كيف لَهُ أن يَشْعُرَ بالناسِ وهُمْ في كَبَدٍ ، وهْو هنالكَ في الأفقِ الأعلى .

كانَتْ مُولَعَةً بديانتِها ، وأنا لستُ عَلَى دينٍ فَكَذَبْتُ عليها : " جَدِّي كان مَجُوسِيًّا " . أَغْدَقْتُ وُعُودًا ، وقليلاً من مالٍ ، وحكاياتٍ صادقةً كاذبةً فَدَخَلْنا مَعْبَدَ نارٍ وتَزَاوَجْنا .

في خَلْوَتِنا صارتْ تَسْتَكْشِفُني ماكرةً فَتَرَىٰ عَرَبِيًّا محرومًا فَتُعَلِّمُهُ الأسرارَ جَميعًا فَرَأَتْهُ مَشْغُوفًا حتىٰ أَنْهَكَها .

الظُّلْمَةُ والنورُ قدِ اجْتَمَعا واكْتَمَلا حين تَمازَجْنا .

خَجِلَتْ نَفْسي أن تسألَها أين بَكارَتُها ؟ ولماذا لا تَتَحَرَّجُ أن تَكْشِفَ فِتْنَتَها ؟

حين رأَتْ وَجْهي يَسْتَغْرِبُها أَخَذَتْ تُخْبِرُني أنَّ هنالكَ جِنِّيًّا يَعْشَقُها . يأتِيها في الليلِ فيُرْغِمُها أنْ تَفْعَلَ ما يُرْضِيهِ فانْصاعَتْ حتىٰ لا يُهْلِكَها .

فَسَأَلْتُ حَزِينًا : " كَمْ جِنِّيًّا سَحَرَتْهُ قَبْلِي مَنْ سَحَرَتْني ؟! " فاضْطَرَبَتْ وبَكَتْ مُتَعَجِّبَةً كيف أُكَذِّبُها ؟!

بَعْدَ أسابيعَ رَحَلْنا في قافلةٍ كانت تنسابُ حَثِيثًا في ثقةٍ ، وتِلالُ الرملِ تُخادِعُها .

قالت خائفةً ما أطولَ أيامَ الصَّحْراءِ وصارت تَتَذَكَّرُ أزهارًا ، ومِياهًا ، وثُلوجًا ، وصداقاتٍ ... ها نَحْنُ نَغِيبُ خِلالَ مَسَافاتٍ تَحْكُمُها الرَّمْضاءُ ... لقَدْ ضاعَتْ " فارِسُ " مِنْها .

كان عليها أن تَحْيَا في لغةٍ أخرى[1] .

لغةٌ فيها أشجانُ البَدْوِ ، وشُحُّ البَهْجَةِ في الكلماتِ ... لقد ضاعَتْ " فارِسُ " مِنْها .

وأتى صُبْحٌ فابْتَسَمَتْ . إنَّ جَنِينًا تَشْعُرُهُ ينمو داخلَها . ما كان سِواهُ يُؤْنِسُها .

أَتَذَكَّرُها في بَيْتي .. كانت تُشْعِلُ ناراً مُتَعَبِّدَةً هائمةً فتحسُّ بأنوارِ النارِ تلامِسُها .

وأنا أحتاجُ النارَ لأصنعَ أصناماً .
تَتَجَمَّلُ فيها الفِضَّةُ حين أُمَازِجُها
بنُحَاسٍ تَسْرِي الحُمْرَةُ فيهِ . هل
لُحْتُ حقيراً في عَيْنَيْها ؟

قالَتْ : " لستُ أراكَ سوىٰ صَنَمٍ
مملوءٍ بأكاذيبَ وبعضِ وعُودٍ
تُخْلِفُها ".

كانت تَسْأَلُنِي أين أُخَبِّئُ أموالي ؟
ولماذا لا نَتَخَلَّصُ من هذي الصَّحْراءِ
بأنْ نَنْأَىٰ ؟!

الأصنامُ هي الأموالُ ، ولا .. لَمْ أُخْبِرْها أني وأنا أَصْنَعُها أَمْقُتُها .

والآن وقد ضاعَ الأحبابُ جميعًا أَمْسَيْتُ بلا معنَى .

لم أتكلمْ منذ شهورٍ . أيامي عَبَثٌ يَتَكَرَّرُ حتى أحْسَسْتُ بأني أصبحتُ عَجوزًا تَتَباعَدُ عني أنوارُ الدنيا .

فـي يَـأسٍ أَخَـذَتْ نَـفْـسـي تَـسْـعَـى
لصـداقـاتٍ حتى تَـتَـخَـلَّـصَ مِن مَسٍّ
كان يُـلاحِـقُـها .

قـد لُـذْتُ بأصـحـابٍ لاذوا بالليـلِ ...
خمورٌ وحكاياتٌ ، والسُّكْرُ يُباعِدُني
عن حَـذَرِي حتـى أَفْـصَـحْـتُ بأسـرارِ
فـؤداي ... يا أصحابي كنتُ أسيرًا عِـنْـدَ
جَمَـاداتٍ ... أنْـفاسي مازالَـتْ مُـثْـقَـلَـةً
بِـروائِـحِـها .

والآن أَراني أَتَحَرَّرُ مِنها ، وأَجِيءُ
إليكُمْ بَعْدَ ضَياعِ العُمْرِ فهَلْ أبْدو
كالعائِدِ مِنْ مَنْفَى ؟

هل كنتُ هنالكَ وَحْدِي أَمْ أَنْتُمْ
مِثْلي مِثْلُ الناسِ جَميعًا ... كُلٌّ
في مَنْفاهُ نَخْشَى أن نهرُبَ مِمَّا
يَسْتَعْبِدُنا ؟!

أخَـذَتْ أقـوالـي تَـفْـشـو فـي الـنـاسِ
فـصـارَ الـسـادةُ في غـضـبٍ مَـسْـعـورٍ .
قد أنْـهَـتْ عُـمْـرِي تـلـكَ الـنَّـجْـوى .

بَـعَـثـوا مَـن قَـتـلـونـي سِـرًّا وأشـاعـوا أنَّ
الأصنـامَ انْـتَـقَـمَـتْ مِـنـي حيـنَ جَـهَـرْتُ
بِـعِـصْـيـانـي وجُـحُـودي ثم رَمَـوْنـي لِضِباعٍ
تَـنْـهَـشُـنـي فـانْـدَفَـعَـتْ روحي راحِـلـةً نحو
الأشـجـارِ إلـى أنْ دَخَـلَـتْ فـي جـسـمٍ
آخـرَ يَـتَـحَـمَّـلُـهـا .

في صمت الأشجار

صادِقَةً أحْيا . إني الحِرْباءْ .

لا أُخْفِي شيئًا . تَتَغَيَّرُ ألواني بِتَغَيُّرِ أحوالي . إنْ أَدْخُلْ في الأشجارِ لأصطادَ أنا خضراءْ .

إنْ أشعرْ قلبي مُنْفَعِلاً أتَحَوَّلْ في لحَظَاتٍ حمراءْ .

والبُقَعُ اللَّوْنِيَّةُ في أنْحائي ألغازٌ ،
ورموزٌ ، وهواجِسُ . إنّ أحاسيسي
تَظْهَرُ في جِلْدي مُعْلِنَةً عن مُعجزةِ
الإفصاحِ ، وعن مَلَكُوتٍ من رَغَبَاتِ
الذرَّاتْ .

عَيْنايَ ذَكاءٌ يَتَحَرَّكُ عَبْرَ دوائرَ
تَبْحَثُ أينَ تَخَفَّتْ عني الحَشَراتْ .

فإذا ما لاحَتْ واحِدَةٌ تَتَذاكَى اسْتِخْفاءً راح لِساني يَمْتَدُّ لِيَجْذِبَها . أشْعُرُها تَتَحَرَّكُ في يَأسٍ مُتَشَنِّجَةً وأنا أمْضُغُها حتى تتلاشى في جَوْفي ... إنَّ الدنيا أشياءٌ تنسابُ إلى أشياءْ .

الحرب الأبدية

كُوخٌ مُنْعَزِلٌ بينَ شُجَيْراتٍ وغَمَامٍ ، والليلُ بساتينٌ مُغْلَقَةُ الأبوابْ .

كُوخٌ فيهِ خَمْسَةُ أصحابٍ . فُقَراءُ أربَعَةٌ وأنا خامِسُهُمْ أشْعُرُ في أعْيُنِهِمْ بَعْضًا مِنْ حَسَدٍ ، وبنَفْسِي بَعْضًا مِنْ حَرَجٍ إذ كنتُ بعيدًا عن أيامِ الفُقَراءْ .

نَتَحَدَّثُ عَمَّا يَطْوِيهِ المَلَكُوتُ الأعلَى
مِنْ غَيْبٍ ، وعَجَائِبِ أقدارٍ ، ومِساحاتِ
فضاءٍ مُتَبَاعِدَةٍ تَتَحاوَرُ بالأضْواءِ ،
وبالأصْداءْ .

خَمْسَةُ أصحابٍ ... رَغْبَتُنا في
اسْتِحْضارِ الجِنِّ تُجَمِّعُنَا . كنَّا
نَتَبادَلُ ما نَعْرِفُهُ مِنْ كُتُبِ السِّحْرِ،
ومِنْ أسرارٍ كَشَفَتْها أفْئِدَةُ
القُدَماءْ .

ذلكَ أنَّ الجِنَّ أثِيرُ نارِيٌّ يَحْيَا في دَرَجاتٍ وُسْطَى بينَ الأعلَى المجهولِ وبينَ الأرضِ فكيفَ إذَنْ نَجْعَلُهُ يأتِينا فنُحَاوِرُهُ ونُسَالِمُهُ ... نَسْتَجْدِيهِ أنْ يَمْنَحَنَا بعضَ جُزَيْئَاتٍ مِنْ قُوَّتِهِ النَّارِيَّةِ نحنُ الضُّعَفاءْ .

صِرْنا أشْجَانًا مُتَشَابِهَةً نَهْفو لنُفُوسٍ أُخْرَى تَتَخَفَّى عنَّا . هل هي تَعْرِفُنا وتَرَانا أمْ لا تَدْرِي بأُناسٍ مِنْ ماءٍ وتُرابْ ؟

أَفْرَطْنا في الشَّوقِ إليها نَتَمَنَّى لو نَسْمَعُها . آهِ لَعَلَّ بَصِيصًا مِنْ أصواتٍ يأتِينا مِنْ طُولِ الإصْغَاءْ .

أَحَدُ الأصحابِ يقولُ : " هي الجِنُّ تَحُطُّ علَى الأرضِ إذا ما ثابَرْتَ وثابَرْتَ علَى تَكْرارِ تَراتِيلَ قدِ اتَّصَلَتْ بتَراتِيلَ قدِ امْتَلأتْ برموزٍ تَتَخَفَّى في الكَلِماتْ .

كَلِماتٌ أَمْلَتْهَا منذُ قرونٍ بعضُ الأشباحِ علَى الأجدادْ ".

قالَ الثاني : " ما كلُّ الجِنِّ سَواسِيَةٌ وأظنُّ بأنَّ الإلحاحَ عَلَيْها قدْ يَجْعَلُها تَرْتابْ .

ولَعَلَّ عِبَاراتٍ يَكْثُرُ فيها حَرْفُ النُّونِ يَرَاها مَنْ هوَ نَارٌ نَارًا ... حينئذٍ لن يَخْشَى أنْ يَتَجَسَّدَ إنسانًا يَكْتُمُ ما في داخِلِهِ مِنْ نورٍ ولَهيبٍ وسِنينٍ مِنْ تَرْحالْ .

بَعْدَ ثَوَانٍ سوفَ يَرَىٰ ويُحِسُّ بمَنْ حاولَ أنْ يَدْعُوَهُ وبهذا تَتَواصَلُ بَيْنَهُما الأسبابْ .

قالَ الثالثُ : " إنَّ الجِنَّ حَيَاةٌ ومَصَائِرُ في الأعْلَىٰ . يَنْبَثُّونَ خِفَافًا بينَ غَمَامٍ وغَمَامْ .

ولَهُمْ أعْمَارٌ هائِلَةٌ وشُجونٌ ، ولَعَلَّ دموعَ الجِنِّ هي الأنْداءْ .

أمَّا مَنْ هَبَطوا مَنْفِيينَ إلى دُنْيانا فيَقِينًا هُمْ يَنْسابونَ علَى مَقْرُبَةٍ مِنَّا . مِنْهُمْ مَنْ يَتَسَلَّلُ داخِلَ جُحْرٍ ... لا يأبَهُ إنْ كانَ بِهِ ثُعْبانْ .

ثُمَّ يُغادِرُهُ في لَحَظاتٍ مُنْدَسًّا داخِلَ قِطٍّ ... وكثيرًا ما يَسْكُنُ أجسامَ الناسِ البُلَهاءْ .

مَنْ يَقْدِرْ مِنَّا أنْ يَحْبِسَ في غُرْفَتِهِ أحَدَ المَسْكونينَ ، ويَتْلُوَ في هَمْسٍ عشراتٍ مِنْ أَدْعِيَةٍ يَظْفَرْ في الغُرْفَةِ بالعِفْريتِ الخارِجِ مِنْ جِسمِ المَسكُونِ وقدْ صارَ كِيانًا مَهْزومًا مَخْنوقًا بالجُدرانْ .

ولكي يَتَحَرَّرَ صارَ عليْهِ أنْ يُفْصِحَ عنْ أسرارٍ وأماكِنَ ما مِنْ إنْسِيٍّ يَعْرِفُها قدْ دُفِنَتْ فيها أموالٌ وكُنوزٌ لا تَفْنَى بمرورِ الأزمانْ " .

كـنَّـا نَـتَـلَـذَّذُ بـالـخَـوفِ ، وبـالـخَـوْضِ
خـلالَ دروبٍ لا نَـدْري هـل تُـفْـضِـي
ليَـقِـينٍ أَمْ أنَّ بـآخرِها اللَّـعَـنـاتْ ؟

مـا أجـمـلَـهُ لَـيْـلاً أخـشـاهُ قـلـيـلاً . أَتَـمَـنَّى
ألا أتْـرُكَـهُ لـنـهـارٍ أكْـرَهُ مـا فِـيـهِ مِـنْ
أصواتٍ ، وحواراتٍ ، وبذاءاتْ .

رُوحـي خُـلِـقَـتْ لا تَـخْـشَـى أنْ تَـمْـضِـيَ
في كَـلِـمـاتٍ تَـجْـعَـلُـنـي في تَـحْـلـيـقٍ
تَـحْـتَ نجـومٍ أو مُـنْـسـابًـا لا أتساءلُ أينَ
سـيَـأْخُـذُنـي الإسْـراءْ .

فـإذا مـا جـاءَتْ شَـمْـسُ أحْـيَـا كالـتَّـائِـهِ
فـي أحْـوالِ الـنـاسِ ... هُـنـالِـكَ أَبْـقَـى
مُـحْـتَـمِـيًا بـأبِـي . هـو تاجِـرُ أخـشـابٍ
ومَـصِـيـري أنْ أمْـضِـيَ أيَّـامِـي بـيـنَ
الأخـشـابْ .

أعـوامـًا وأنـا أَمْـكُـثُ بـيـنَ روائِـحِـهـا ،
وأُراقِـبُـهـا وهْـي تُـرَصُّ لساعاتٍ ناشِـرَةً
قَـعْـقَـعَـةً وغُـبَـارًا . كَمْ فَـشِـلَـتْ نَـفْـسي
أنْ تَـتَـقَـبَّـلَ آلامَ الـضـوضـاءْ .

وأَبِـي لا يُـدْرِكُ ما فِـي أعماقي مِـنْ صِلَـةٍ بالظُّـلُـمَـاتْ .

كان الـرابـعُ أكْـثَـرَهُـمْ فـقـرًا . قـالَ يُـخاطِـبُـنـي وهْـو يُـدارِي غَـيْـظًـا : " لـيـتَ أبـاكَ أَبِـي . إنِّـي أَقْـدِرُ أنْ أَتَـحَـمَّـلَ وِزْرَ الأخشـابِ لِـقـاءَ حـيـاةٍ لـيـسَ بِـهـا حِـرمـانْ .

نَحْنُ جَميعًا نَسْعَى في أخطارِ السِّحْرِ لَعَلَّ بِهِ مُعْجِزَةً تَأْتِينا بالثَّرَواتْ .

أو تَنْصُرُنا بالجِنِّ علَى من ظَلَمونَا . أنتَ غَريبٌ عَنَّا . هلْ تَسْتَنْجِدُ بالسِّحْرِ وأنتَ غَنِيٌّ حَتَّى تَرْتَدَّ لدُنْيانا مُنْضَمًّا للتُّعَسَاءْ ؟! " .

كانَ وَضِيعًا فَتَرَكْتُ الكُوخَ وسِرْتُ وَحِيدًا . عَبَثًا كانَ الفَجْرُ يُحاولُ أنْ يَبْدوَ لَيلاً . بَعْدَ سُويْعاتٍ سَيَجيءُ صَباحٌ تَنْسابُ بِهِ الغَوْغَاءْ .

بَلْدَتُنا مُتَواصِلَةٌ بحُقولٍ ، وبِها طُرُقٌ تَنْسابُ إلىٰ بُلْدانٍ أُخْرَىٰ ، والناسُ مَطامِعُها مُتَحارِبَةٌ ، وأمامي أسرابُ بيوتٍ لا أدْرِي إنْ كانَتْ آمِنَةً ، وعَبيدُ الأرضِ نُفوسٌ .. مَنْ يَمْلِكْهُمْ لا يَعْرِفْ إنْ كانَ لَهُمْ مِنْ أسماءْ .

يَجْتَمِعُ الناسُ عَلَى تَقْدِيسِ تُراثٍ يَحْيَا في كُتُبٍ تَنْسابُ هُنا وهُنالِكَ باعِثَةً ما فِيها مِنْ أحلامٍ وظِلالٍ في البُلْدانْ .

ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ سَنَواتٍ كُتُبٌ أُخْرَى مَزَجَتْ أقوالَ قُدَامَى الحُكَمَاءِ بأخْبارٍ كاذِبَةٍ قَدْ جاءَ بِها الدُّخَلاءْ .

فاسْتَرْسَلَتِ النَّاسُ كثيرًا في قِصَصٍ مُسْرِفَةٍ في التَّرْهِيبِ ، وإظْهارِ الوَيْلِ ، وتَبْجيلِ نُصُوصٍ لَمْ يأتِ بِها الأسْلافْ .

زَعَمُوا أنَّ الجِنَّ تَزُورُ المَوْتى .. يَخْتَارونَ قُبُورًا دُونَ سِواهَا فإذا كانَ المَيِّتُ في دُنْيَاهُ شِرِّيرًا صارَ الجِنِّيُّ لَهيبًا أسْوَدَ يَحْرِقُهُ أو أنْيابًا تَنْهَشُهُ ، ويَظَلُّ القَبْرُ صَموتًا لا يُفْصِحُ عَمَّا فيهِ للأحياءْ .

زَعَمُوا أنَّ هناكَ طَلاسِمَ .. مَنْ يُبْحِرْ فيها يُصْبِحْ ذا مَعْرِفَةٍ بشِفاءِ المَرْضَى، ورجوعِ المَجْنونِ إلى الناسِ ، ودَفْعِ العاقِرِ للإنجابْ .

كُتُبٌ كُتُبٌ ... قَرَأتْها ناسٌ وانْسابَتْ فيها ، وارْتَحَلَتْ فيمَا تَحْوِيهِ مِنْ إسْرافْ .

عَمَّتْ فَوْضَى مِنْ جَدَلٍ ، وانْتَشَرَتْ أوكارٌ .. كلٌّ مِنْها يَزْعُمُ أنَّ لَدَيْهِ جِنِّيًّا يَعْرِفُ بَعْضًا مِمَّا يَعْرِفُهُ العارِفُ بالناسِ وبالأكوانْ .

ضَحَّى الفقراءُ بكلِّ عَزيزٍ مِنْ مالٍ حتى يَسْتَمِعوا للأوهامْ .

أَسْمَعُ جارتَنا تَصْرُخُ حينَ اكْتَشَفَتْ أنَّ ابْنَتَها زارتْ أَحَدَ الأوكارِ وبعدئذٍ صارتْ حُبْلَى ، وابْنَتُها تُقْسِمُ إنَّ الظُّلْمَةَ لَمْ تَجْعَلْها تَدْرِي هلْ ضاجَعَها جِنِّيٌّ أمْ إنسانْ !

دَخَلَ الخَوفُ قلوبَ الناسِ فصاروا يَخْشَونَ ظِلالاً تَعْبَثُ في أجْواءِ الظُّلْمَةِ . هَلْ هي أطْيافٌ سائِرَةٌ أمْ خُطُواتُ لُصوصٍ تَتَشَبَّهُ بالأطْيافْ ؟

وتَجَمَّعَتِ الأرْذالُ عِصاباتٍ تَنْشُرُ أخطاراً في الطُّرُقاتْ .

جَعَلوا مِنْ سَفَرِ الناسِ ونَقْلِ الأشياءِ مُجازَفَةً فازْدادَ الحَذَرُ المَجنونُ لَدَىٰ التُّجَّارِ فَضَنُّوا ببَضائِعِهِمْ ، وبَدَا أنَّ الأيامَ ستأتِي بِمَآسٍ ومَجاعاتْ .

حتى الجُهلاءُ عَبيدُ الأرضِ أَتَتْهُمْ بَعْضُ الجُرْأةِ بَعْدَ خُنُوعٍ دامَ مئاتِ الأعوامْ .

شُبَّانٌ مِنْهُمْ قَدْ هَرَبوا وانْتَشَروا شَرًّا في الأسواقِ ، وناموا بينَ مَتَاهاتِ الوُدْيانْ .

وانْبَثَقَتْ في البُلْدانِ شَرائِمُ ثائِرَةٌ يَحْكُمُهُمْ مَنْ زَعَمُوا أنَّ الجِنَّ تُناصِرُهُمْ . كانَ لَهُمْ فُقَهَاءٌ سَمَحُوا للثائِرِ أنْ يَنْهَبَ مَنْ كانَ ضَعيفَ الإيمانْ .

أنْ يَقْتُلَ أصحابَ المِلَلِ الأخرَىٰ .
قالوا هُمْ عُمْيانٌ ، والأعْمَىٰ ليسَ
يَرَىٰ الآياتِ المُنْسابَةَ في كلِّ
مكانْ .

لَكَأنِّي في مَنْفى .. ما عادَ هنالِكَ
مِنْ سَمَرٍ يَجْمَعُ بينَ الأصحابِ ،
ولا إحساسٍ بورودٍ مُتَسانِدَةٍ عِنْدَ
جِدارِ البَيْتِ ، ولا قَلْبٍ يَتَذَكَّرُ إيقاعًا
يَسْرِي في الإنْشادْ .

وإذا بالدُّنْيَا تُخْبِرُني أنَّ الأهوالَ ازْدادَتْ حَتَّى ما عادَتْ تَتَخَفَّى ، وسَمِعْتُ أبِي يَشْكو أنَّ الجَوْعى صاروا أنْدادًا للأسْيادْ .

أهوالٌ أهوالٌ ... فَتَناسَى التُّجَّارُ ضَغائِنَهم ، وتَخَلَّى المُلاكُ قليلاً عَنْ نَشَواتِ تَكَبُّرِهِمْ ، وأفاقَ الحُكَّامُ إلى حِينٍ مِنْ تُخْمَتِهِمْ ، واتَّحَدُوا خَوفًا مِمَّا شَمِلَ البُلْدانَ منَ العِصْيانْ .

صاروا أموالاً مُتَآزِرَةً حارَبَتِ الأوكارَ
وما تَبْعَثُهُ مِنْ فِتَنٍ . كانَ لَهُمْ
فُقَهاءُ قالوا إنَّ الثُّوارَ جَميعًا كُفَّارُ
حَتىٰ سَمَّوْهُمْ أعوانَ الشَّيْطانْ .

أُغْلِقَتِ الأسواقُ ثلاثةَ أيَّامٍ صارَ
بِها القَتْلُ عَلانِيَةً في الصُّبْحِ
وفي الليلِ ، وجاءَتْ أمطارٌ نَشَرَتْ
في الأحْياءِ دِماءَ القَتْلَىٰ وأنا أنْظُرُ
مِن شُبَّاكِي فأرَىٰ جُثَثًا تَتَلَفَّعُ
بالأوحالْ .

لا أَدْرِي مَـنْ وَسْـوَسَ لـي أنَّ الـنـاسَ جميعًا ظالِـمَـةٌ فأتاني كابوسٌ يَـجْـعَـلُـني أَتَـوَهَّـمُ أنَّ الناسَ سَـتَـنْـجو لو مُـسِـخَـتْ حَـشَـراتٍ أو فـئـرانْ .

صاحِـبُـنا الرابعُ صارَ مِـنَ الدَّجَّالِـينَ أسابيعَ فـلَـمْ يُـفْـلِـحْ . أَعْـلَـنَ تَـوْبَـتَـهُ ، وتَـحَـوَّلَ جاسُوسًا في أيْـدِي الـوُجَهاءْ .

أَخْبَرَنِي هَمْسًا أَحَدُ الأصحابِ بأنَّ سَمَاجَتَهُ وضآلَةَ ما يَعْرِفُهُ جَعَلَتْهُ غَيْرَ جَدِيرٍ أنْ يَغْدُوَ دَجَّالاً فَتَرَدَّى مُخْتارًا فِيما هو أَدْنَى مِنْ دَرَجاتْ .

أمَّا صاحِبُنا الثاني فَتَلاشَى مُرْتَحِلاً عَبْرَ بِلادٍ أخرَى ثُمَّ أتَانَا مَزْهُوًّا مُحْتَقِرًا ماضِيَهُ . قالَ هوَ السِّحْرُ عِباراتٌ لَيْسَتْ تَحْوِي مِنْ مَعْنى ، والجِنُّ هَبَاءْ .

ومَضَى يَمْشِي بينَ الناسِ نَبِيًّا لا يَسْمَعُهُ مِنْ أَحَدٍ فتَحَدَّاهُمْ . أخبَرَهُمْ بمكانِ الكُوخِ وقالَ سأَمْكُثُ فيهِ يومًا مُكْتَمِلاً ، ولْيُرْسِلْ لي أصحابُ السِّحْرِ بجِنِّيٍّ يؤْذِيني أو يَقْتُلُني فإذا فَعَلوا فأنا الكذَّابْ .

جاءَ اليومُ المَعْلومُ فصارَ زِحامٌ حَوْلَ الكُوخِ وكنتُ أنا مِنْهُمْ نَتَرَقَّبُ أنْ يأتيَنا مَنْ سَيُرَوِّعُنا ثمَّ يَرُوحُ إلى الكُوخِ ليَفْعَلَ فيمَنْ كانَ نَديمي وصَديقي ما شاءْ .

كلُّ زِحامٍ ثَـرْثَرَةٌ .. كنَّـا نَـتَـساءلُ مِـنْ أيـنَ سيـأتي الجِـنِّـيُّ ؟ أمِـنْ أعـلَى ؟ أمْ مِـنْ جُـحْـرٍ ؟ أمْ مِـنْ بَـيْـنِ الأشـجـارِ ؟ ... ومَـرَّ الصُّبْـحُ فَـمَـلَّـتْ ناسٌ ومَـضَـتْ ، وأتَـتْ نـاسٌ أخـرَى تَـنْـتَـظِـرُ الـقـادِمَ بالوَيْـلاتْ .

لَـمْ أتـراجَـعْ وظَـلِـلْـتُ إلـى أنْ جـاءَ الـلـيـلُ وكـانَ بطـيـئًـا ثُـمَّ تَـصاعَـدَ نـحـوَ الـفَـجْـرِ حَـثِـيـثًـا ... هـل بَـدَأتْ تَـفْـنَـى عـنـدَ الـكُـوخِ الـساعاتْ ؟!

وتَـراءَتْ أفـرادٌ قـادِمَـةٌ مِـنْ كـلِّ الأنْحـاءْ .

يَـمْـضـونَ إلى الـكُـوخِ وكـلٌّ مِـنـهُـمْ يَـحْـمِـلُ نارًا . كانَـتْ كلُّ وجوهِ الأفرادِ مُـلَـثَّـمَـةً ، ولَـهُـمْ أجسامٌ هائِلَـةٌ ، وملابِـسُ دَكْـنـاءْ .

مَـدُّوا أيْدِيَـهُـمْ بالنارِ إلى الـكُـوخِ فصارَ حَـرِيـقًا ثُـمَّ ابْـتَـعَـدوا رَكْـضًا .. أجـسـامٌ هائِلَـةٌ تَـحْـمِـلُ أفئِدَةَ الجُـبَـناءْ .

بَعْدَ ثَوانٍ صارَ الكُوخُ هَشِيمًا ،
وصَديقي مُحْتَرِقًا تَأكُلُهُ نارُ
الأخشابْ .

مِنْ فَرْطِ صُراخِي وبُكائي بينَ
صُراخِ الناسِ سَقَطْتُ عَلَى الأرضِ
غَريبًا يَطْويني الإغْماءْ .

ثُمَّ أَفَقْتُ عَلَى قَدَرٍ كانَ رحيمًا .
أَوْعَزَ لي أنْ أغْدُوَ مَجنونًا فَمَكَثْتُ
شُهورًا أحْيَا في صَمْتٍ وأحاوِلُ أنْ
أَتَذَكَّرَ أسماءَ الأشياءْ .

الحالمون

جِلْدِي أَسْمَكُ مِنْ أَنْ تَنْفُذَ مِنْهُ الأَنيابْ .

وَزْني الهائِلُ لا يَمْنَعُني أَنْ أَجْرِيَ مُنْطَلِقًا لا أَتَصَادَمُ بالأَشجارِ ولا بالأَشياءْ .

أمْـلِـكُ نَـفْسًا هادِئَـةً ومُسالِـمَـةً فـإذا مـا حـاولَ وَحْـشُ أغْـراهُ الـجـوعُ بأنْ يَـطْـمَـعَ في جِسْمـي فـبِرَأسِي قَـرْنٌ يَـقْدِرُ أنْ يَـقْـتُـلَـهُ أو يَـجْـعَـلَـهُ يَـهْـرُبُ مُـبْـتَـعِدًا عنْ غَضَبـي ... ما أبْـشَـعَ تـلكَ الـمَـخْـلوقـاتْ .

مُـنْـذُ مـلايـيـنِ الأعـوامِ وأجـدادي مِـثْـلـي .. كُـلٌّ يَـحْـيَـا فـي عُـزْلَـتِـهِ ، ولَـنَـا أفْـئِـدَةٌ حالِـمَـةٌ جَـعَـلَـتْـنـا لا نـأكُـلُ إلا الأعـشـابْ .

العناكب

سُلطانُ مَعْبودٌ يَحْيَا في القَصرِ الأعلى .. يَمْلِكُ أقداراً ، وملائكةً ، وشياطينْ .

يَسْتَأمِنُني فيَبُوحُ بأسرارِ دَسَائِسِهِ ، ومَباهِجِ ما يَلْقَاهُ عَبْرَ لياليهِ . يَسْتَغْرِبُ أنْ يأتيَهُ ناسٌ لَمْ يَرَهُمْ مِنْ قَبْلُ إذا اسْتَرْسَلَ في الأحلامْ .

ثَمَّـــةَ كابـــوسٌ يَـــجْـــعَـــلُـــهُ فـــي شَـــكٍّ :
هل تَـطْـمَـعُ زوجَـتُـهُ وبَـنُـوهُ في العَـرشِ ؟
وهـل يَـقْـتُـلُـهُـمْ إنْ خـانـوهُ ؟ ولـمـاذا
يَـشْـعُـرُ أنَّ لَـدَيْـهـم أفـئـدةً تُـخْـفِـي
جَـمْـرًا وكراهِـيَـةً ؟ ولماذا يَـزْدادُ الشكُّ
لـديْـهِ حـتـى يَـجْـعَـلَـهُ كالسـائـرِ بين
الـنـيـرانْ ؟

كـنـتُ وفِـيـًّا وهْـوَ رآنـي فَـذًّا ووفـيـًّا وفَـتِـيـًّا ، وأتَـتْـهُ رؤيا شـاهَـدَني فيها مُـبْـتَـسِـمًا مُـمْـتَـطِـيـًا فَـرَسًا ، ورَأىٰ هذا فَـأْلاً حَـسَـنًا .. حيـنـئذٍ أصْـدَرَ أمْـرًا يَـجْـعَـلُـني مـسـئولاً عن كـلِّ تفاصيلِ الأشـيـاءْ .

قالَ : " أراكَ جَدِيرًا بالمَـنـصِـبِ " ... قَـدْ أهَـداني مَـجْـدًا مِـنْ نَـشَـواتٍ وهُـمـومْ .

هو إنسانٌ مِثْلي ، وهْو إلَهٌ في جَوْهَرِهِ فإذا ما ماتَ تَحَوَّلَ أضواءً تَتَصَاعَدُ باحِثَةً عن آلهةٍ كانوا ناسًا ، والآنَ هُمُ الأضواءْ .

إنَّ القصرَ الأعْلَى مُتَّصِلٌ بسماواتٍ ، وتُبارِكُهُ أطيافٌ لا أَحَدٌ مِنْ ناسِ الأرضِ يَراها ، وأنا مِنْ أنْسابٍ تُؤْمِنُ أنَّ ملائكةً جاءَتْ منذُ عُهودٍ وبَنَتْهُ ثم أحاطَتْهُ بزهورٍ وشُجَيراتْ .

ما لَبِثَتْ أنْ صارَتْ أشجاراً فإذا بجَداولَ تأتِيها بالماءْ .

حَوْلَ القصرِ بساتينُ مُتَنَاغِمَةٌ تُفْضِي لقصورٍ تابِعَةٍ قد زادَتْ عن مِئَةٍ . هي دنيا مِنْ بَذَخٍ وجَوَارٍ هُنَّ ثلاثةُ آلافٍ يَخْدِمُهُنَّ مئاتُ المَخْصيينْ .

ثَمَّـــةَ حُـــراسٌ ، وأطـبـــاءٌ ، وطُـــهَـــاةٌ ....
ودَهَـالِـيـزُ بـهـا سِـجْـــنٌ فِـيـهِ سَـيَّـافٌ ،
ورِجـــالٌ أجْـلافٌ ، وأمـاكِنُ داكِـنَـــةٌ قـــد
يَحْدُثُ فيها تـعذيـبٌ أو إعـدامْ .

تحـتَ القصـرِ مَـخَـابِـئُ مُـغْـلَـقَـةٌ ولـهـا
أبوابٌ تُفْضِي لمَخَابِئَ أخْرَىٰ، ومفاتيحُ
الأبوابِ جميعًا بيَدِ السلطانْ .

وقُـبَـيْـلَ الأسـوارِ مـسـافـاتٌ هـائِـلَـةٌ
وخـيـولٌ تَـنْـسَـابُ بمَـنْ يَـرْكَـبُـهـا مِـنْ
زُوَّارٍ أو أُمَـرَاءْ .

هـذِي مَـمْـلَـكَـةُ صُـغْـرَىٰ ، والـشعـبُ هـنـاكَ
بـعـيـدٌ لا يـعـرِفُ عـنَّـا شـيـئًا ، وقـلـيـلاً
مـا أذهَـبُ نـحـو هـنـاكَ إلىٰ أهْـلِـي أسمَـعُ
في شَـغَـفٍ قَـصَـصـًا وشُـجـونـًا ، وأرَىٰ
الفقراءَ حَـيارَىٰ في الطُّـرُقـاتْ .

بَعْدَ سُوَيْعاتٍ أترُكُهُمْ . أتسلَّلُ في
الليلِ لمَاخُورٍ لا يَعْرِفُني فيهِ أحدٌ .
أُعْطِي مالاً حتىٰ أتَخَلَّصَ مِنْ نيراني
ثُمَّ أعودَ إلىٰ المملكةِ الصُّغْرَىٰ
وبِها أرْجِعُ للأيامْ .

كانَ أبِي بُسْتانِيًّا أوحَىٰ لي أنْ
أتَعَجَّبَ كيفَ تَبُوحُ الأرضُ بألفِ
حياةٍ مُتَزَاحِمَةٍ ... ما إنْ تَشْعُرْ
بالماءِ يُلامِسُها تَتَفَجَّرْ أسرابَ
نباتاتٍ مُسْتَسْلِمَةٍ للمخلوقاتْ .

كنتُ صَبِيًّا يُدْرِكُ ما يَمْلِكُهُ مِنْ ثِقَةٍ ووسامَةِ وَجْهٍ ، ورَأَتْني أُمُّ السلطانِ فَرَقَّتْ لي وتَبَنَّتْني . جَعَلَتْني أعلَى مِنْ خَدَمِ القَصْرِ ، وأدْنَى مِن أُسْرَتِها فَعَرَفْتُ حدودَ طُموحي ، وشَعَرْتُ ضَميري لا يَشْكو مِمَّا قُدِّرَ لي مِن مَنْزِلَةٍ ومَصيرٍ وقُيودْ .

والآنَ أَرَى أيَّامي سَعْيًا عَبْرَ مِساحاتِ قُصورٍ مُتَواصِلَةٍ بِمَمَرَّاتٍ وبَساتينْ .

أَدْخُلُ قَصرًا قَصرًا ... أتَعَمَّدُ أنْ يَبْدُوَ وَجْهي الطَّيِّبُ جَهْمًا ... نَظَراتي مُسْتَنْكِرَةٌ ، كَلِماتي آمِرَةٌ . قَدْ تَرْغَبُ جارِيَةٌ أنْ تُرْبِكَني فتُحاوِلُ أنْ تَبْعَثَ نورًا تُرْسِلُهُ نَحْوي بالنَّظَرَاتْ .

هُنَّ جَميلاتٌ .. هذا لا يُضْعِفُني ، لا يَجْعَلُني أنْسَى أنَّ لَدَيْهِنَّ أُصولاً حافِلَةً بِخِصالِ الجوعِ ، وعاداتِ الفُقَراءْ.

مِنْهُنَّ غَريباتٌ مِنْ أعْراقٍ دُنْيا .
تَسْرِي فيهنَّ دماءُ شعوبٍ هَمَجٍ .
إنْ أشْفَقْتُ عَلَيْهنَّ جَنَحْنَ إلىٰ
الفَوْضَىٰ . قَدْ أوْعَزَ لي السلطانُ بأنَّ
الإشفاقَ قَرينُ الضُّعَفاءْ .

بَعْضُ مِنْهنَّ بَذيئاتٌ وأنا أتَجاهَلُ
ما يَجْهَرْنَ بِهِ من شَكْوَىٰ ... لا يُمْكِنُني
أنْ أمْنَعَ عَنْهنَّ لياليَ تَعْبُرُ فيها
الشَّهَواتْ .

يَجْهَرْنَ بأنَّ مئاتٍ مِنْهنَّ عَذارَىٰ ...
تَمْضي الأعوامُ ومازِلْنَ عَذارَىٰ ...
أنَّ السلطانَ يَسِيرُ إلىٰ شَيْخوخَتِهِ ،
وقليلاً ما يَرْغَبُ فيهنَّ الأُمَراءُ
الأبناءْ .

ما أكْثَرَ زُوَّارَ القَصْرِ مِنَ الوُجَهاءِ ...
يَجِيئونَ وفي صُحْبَتِهم فَتَياتٌ
ونِساءٌ يَرْغَبْنَ بأنْ يُصْبِحْنَ عشيقاتٍ
لِلأُمَراءْ .

حَفَلاتُ القَصْرِ طُقوسٌ مُتَوارَثَةٌ تتناغَمُ فيها أطْعِمَةٌ، وعُطورٌ مُتَسَلِّلَةٌ، وأغانٍ، وخمورٌ، وضياءُ قناديلَ يَفِيضُ عَلَى أعمِدَةٍ ورسومٍ وتماثيلَ بلا حَوْلٍ. قد كانوا ناسًا ثُم أتاهُمْ غَضَبٌ حَوَّلَهُمْ أحجارًا خَرْساءْ.

وازْدادَ القصرُ بَهاءً حينَ نَثَرْتُ
خلالَ زَوايا القاعاتِ جَوارِيَ يُذْعِنَّ
لأمْري . يَجْلِسْنَ وراءَ الضوءِ الخافِتِ
لا يَتَكَلَّمْنَ ولا يَتَحَرَّكْنَ . يَلُحْنَ زهوراً
مُتَشابِهَةً يَبْعَثْنَ إلى الرَّائي
بالنَّشَواتْ .

أَوْحَيْتُ إلى السلطانِ بأنَّ القاعاتِ بِمَا فيها مِنْ زُوَّارٍ ونَفائِسَ قَد صارَتْ كَوْكَبَةً تَتَحَرَّكُ في بُطءٍ حَوْلَ العَرْشِ . لَقَدْ كانَ مَهِيباً يَجْلِسُ في زينَتِهِ القُصْوَى ، والوَجْهُ وَقَارٌ ، وقَليلٌ مِنْ كلِماتٍ ، وكثيرٌ من إيماءاتْ .

هذا لَيْلٌ تَتَكامَلُ فيهِ السَّاعاتُ وليسَ بِهِ ما يُضْجِرُني إلا أوغادُ الشُّعَراءْ .

حَذْلَقَةٌ ، ومَديحٌ ، ومَزيجٌ من غَطْرَسَةٍ وخُنوعٍ ، وتَظَارُفُهُمْ ليسَ بِهِ قَطْرةُ ماءْ .

وأنا أَجْعَلُ وجْهي مُبْتَسِماً حتَّى أُخْفِيَ نِقْمَةَ نَفْسي حينَ يقولونَ قَصائدَهُمْ فالسُّلطانُ حَفِيٌّ برَتابَةِ تلكَ الإيقاعاتْ !

فإذا ما جاءَتْهُمْ أطْعِمَةٌ صاروا غِرْبانًا ثم ثَعالِبَ تَلْهَثُ مِن فَرْطِ التُّخْمَةِ والإعْياءْ .

يَتَلاشَى الحَفْلُ وتَبْقَى فَوْضاهُ ، وبَقايا أنفاسٍ وضَجيجٍ لَمْ تَخْرُجْ بَعْدُ مِن الأبوابْ .

وقُبَيْلَ الفَجْرِ اسْتَدْعاني السلطانُ يُريدُ مُحادَثَتي . قالَ وعَيناهُ تَلْتَمِعانِ سُروراً : " تلكَ الجاريةُ السَّمْراءُ لعلكَ تَعْرِفُ أنـي لا أرغبُ إلا فيها . جَعَلَتْني أَنْسَى تاريخاً مَمْلوءاً بمئاتِ الفَتياتْ .

جِسْمِي المُتَرَهِّلُ أشْعُرُهُ تَصْحو فيهِ الأشواقُ ، وتَزْدادُ الرغَبَاتْ .

دِفْءٌ سِحْرِيٌّ يأتِيني مِنْها حينَ تُمَسِّدُني . كيف تَمَازَجْتُ بِها وهْي مِنَ الأغرابِ ولا تَعْرِفُ مِنْ لُغَتِي غيرَ قليلٍ مِنْ كَلِماتْ ؟!

أسْألُها : مِنْ أيِّ بلادٍ جِئْتِ ؟ فَلا أفْهَمُ مِنْها شيئًا . قَدْ أحْبَبْتُ فَتاةً جاءَتْ مِنْ بَلَدٍ لا أدْرِي أينَ يكونْ !

هـي لا تَـعْـرِفُ أنِّـي مَـعْـبـودٌ ... ذاتَ مـسـاءٍ وهْـي مَـعِـي وأنا عـارٍ مُـسْـتَـلْـقٍ كالـنـائـمِ صـارَتْ تَـضْـحَـكُ سـاخِـرَةً مُـتَـحَـبِّـبَـةً . أخَـذَتْ تَـلْـسَـعُـني بالشَّـمْـعَـةِ وهْـي تُـحَـوِّمُ حَـوْلي ثُـمَّ ابْـتَـدَأتْ في قَـهْـقَـهَـةٍ وأنا لا أدري هـل أزْجُـرُهـا أَمْ أتْـرُكُـها تَـنْـساقُ بتلكَ الأهـواءْ ؟!

كَمْ أرْغَبُ أنْ أعْتَزِلَ الناسَ وأبْقَى
مَعَها لكنِّي أخشَى أنْ أتْرُكَ مُلْكي.
أخشَى أنْ يَفْتِكَ بي مَنْ يأتي
مِنْ بَعْدِي . مُلْكي الآنَ أراهُ أَصْفادي .
هَلْ تَتَعَجَّبُ مِثْلي حينَ تَراني
لا تَحْميني إلا تلكَ الأصْفادْ ؟!"

ظَلَّ السُّلْطانُ يُحَدِّثُني ثُمَّ غَفَا في
لَحَظاتٍ فَتَراءَى وجْهًا فيهِ اطْمِئْنانٌ
مُمْتَزِجٌ بقليلٍ مِنْ جَزَعٍ . قَدْ أَخْبَرَني
يوماً أنَّ الأحلامَ تَجِيءُ إليْهِ حافِلَةً
برُعُودٍ ، ووجوهٍ ، ولَيالٍ لا يَتَحَمَّلُها
إلا مَنْ صارَ مِن الأرْبَابْ .

أحسَسْتُ بأنوارِ الصُّبْحِ تُطارِدُ بعضَ نُعَاسٍ راوَدَني . منذُ سنينٍ كنتُ أنامُ قليلاً ، والآنَ أنا لَسْتُ أنامْ .

ما هذا المَنْصِبُ ؟! إنَّ مَشَقَّتَهُ تَزْدادُ وتَزْدادُ كأني فَرَسٌ مُرْتَحِلٌ جَرَّرَ مَرْكَبَةً تَحْمِلُ ناسًا تَلْهو وهْو شَقِيٌّ مُنْدَفِعٌ ليسَ يَنامْ .

أَخْلَصْتُ إلىٰ أنْ صِرْتُ أَثِيرًا حتىٰ عندَ الأُمَراءْ .

بَعْضٌ منهمْ أشرارٌ وبِهمْ عَجْرَفَةٌ وأنا أُرْضِيهمْ ، وأُسايِرُهُمْ فاسْتَجْلَبْتُ خيولاً نادِرَةً ، وعُطوراً ما عَرَفوها مِنْ قَبْلُ ، وأسلِحَةً تَجْعَلُهُم في رَحَلاتِ الصَّيْدِ وُحُوشاً تَفْتِكُ بالغِزْلانْ ...

بَعْدَ شهورٍ صارَتْ أيَّامي مُتَشَابِهَةً حتى جاءَتْني الأقدارُ بمَنْ جَعَلَتْني أشْعُرُ أني مجنونٌ وجَميلٌ فرَأَيْتُ صِلاتٍ بينَ الزَّهْرِ وبينَ الأنغامْ .

كيف أَتَتْني ؟ في لَيْلٍ كانَ يُداريها أحْسَسْتُ بِها ظِلاًّ يَتْبَعُني . نادَتْني هَمْسًا : " هل تَعْرِفُني ؟" كانَ بَصِيصٌ من أنوارِ قُصورٍ مُتَبَاعِدَةٍ يُظْهِرُها ، وأنا وَحْدي بينَ مَمَرَّاتِ البستانْ .

" هل تَتَذَكَّرُني ؟ أهلُكَ كانوا جيرانًا مُنْدَمِجينَ بأهلِي وأنا جِئْتُ هنا جارِيَةً منذُ ثلاثةِ أعوامْ ".

شَجَّعَها صَمْتِي ، وشَعَرْتُ بِرِعْدَةِ وَجْدٍ تَسْري في جِسْمي فاقْتَرَبَتْ مِنِّي ، واحْتَضَنَتْني مُتَنَهِّدَةً ، وأنا أنْساقُ إلى ضَعْفي فدَخَلْنا بينَ شُجَيراتٍ حتى نَتَخَفَّى ، وبَدَأنا قِصَّةَ حُبٍّ غامِضَةً مُفْعَمَةً بالخَوفِ وبالأَنْسامْ .

صِرتُ أُناجِيها وتُناجِيني باللَّمَساتْ.

نَتَحَدَّى تاريخًا مَمْلوءًا بالسُّخْطِ عَلَى جُرْأتِنا ، ونُحاوِلُ أنْ نَتَناسَى أشباحًا وأُناسًا مُتَناثِرَةً في الظُّلُماتْ .

قلتُ لنَفْسي ليسَ عَلَينا مِنْ لَوْمٍ ... نحنُ وُرُودٌ لا تَمْلِكُ إلا أنْ تَسْكُنَ في الأوحالْ .

ثُمَّ ازْدادَتْ جُرْأتُنا ... صارَتْ تَأتِيني في إحْدَى الغُرَفِ السِّرِّيةِ في قَصْرِ الزُّوَّارِ . هناكَ تُريني جِسْمًا عاجِيًّا فأُعانِقُها . ما أنْدَرَ ما كنَّا نَتَبادَلُهُ من كلِماتْ .

جَعَلَتْني أيامُ العِشْقِ بمَنْأًى عن
إدراكِ دسائِسَ كانَتْ تَتَحَوَّلُ حَلْقاتٍ
تَسْتَحْكِمُ حَولَ السُّلْطانْ .

أين الجارِيَةُ السَّمْراءْ ؟!

لا أحَدٌ يَقْدِرُ أنْ يَهْرُبَ أو يَجْتازَ
الأسوارَ فأينَ الجَارِيَةُ السَّمْراءْ؟!

بَحَثُوا عَنْها لَمْ يَجِدوها فأَتَوا
بكِلابٍ تَتَشَمَّمُ كلَّ الأرجاءْ .

حتى وَجَدُوها قَدْ دُفِنَتْ فأزالوا عَنْها طِينًا كانَ يَهُمُّ بأنْ يأكُلَها . كانَتْ جِسْمًا فيهِ طَعَنَاتٌ يَحْمِلُ وَجْهًا مُرْتَعِبًا .. لَكَأنِّي أسْمَعُ مِنْهُ بَعْضَ الأنَّاتْ .

جاءَ المَوتُ إليها حتى يَحْرِمَها من عَشَراتِ السنواتْ .

ورآها السلطانُ فصارَ بُكَاءً ثم نَحيباً ، واسْتَرْسَلَ في نَظَرَاتٍ تَسْألُ أينَ تَلاشَتْ فِتْنَتُها ؟! ثُمَّ انْساقَ يُكَلِّمُ أشباحًا وهَباءً ... " كيفَ أُعِيدُ إليها رُوحًا قد ضاعَتْ مِنْها ؟ أوَلَسْتُ إلَهًا ؟! " ثُمَّ تَحَوَّلَ صَوتًا يَصْرُخُ " إنِّي أعْرِفُ مَنْ أَرْسَلَ لي هَذِي الطَّعَناتْ ".

وانْهارَ فساقُوهُ نحوَ جَناحٍ في قَصْرٍ مَعْزولٍ سَجَنُوهُ فيهِ، وأَشاعوا بينَ الناسِ جَميعًا أنَّ السلطانَ أَتَاهُ زُهْدٌ فتَخَلَّى عنْ أُبَّهَةِ الحُكْمِ إلى نُسْكٍ يَجْعَلُهُ يَتَعَمَّقُ في كُتُبِ القُدَماءْ.

واتَّهَمُوا ظُلمًا بعضَ جَوارٍ بالقَتْلِ فأُعْدِمْنَ، وكانَتْ مَنْ عَشِقَتْني أُولَى المَعْدوماتْ.

آهِ لقد عَرَفوا سِرِّي فلماذا تَرَكوني
حَيًّا ؟! ليُطِيلوا مِنْ رُعْبي وعذابي ؟
أمْ أنَّهُمُ اسْتَبْقَوْني حتى يَجِدوا إنسانًا
آخرَ يُمْكِنُهُ أنْ يَغْدُوَ مسئولاً عَنْ
كلِّ تفاصيلِ الأشياءْ؟!

أحلام الجاحظ

نارُ جَهَنَّمَ ناسٌ من نارٍ لا أخشاها .

قَدْ دَخَلَتْ في المَلَكوتِ فمَا عادتْ حارِقَةً . هي أسرابُ نُفُوسٍ يُمْكِنُها أنْ تَتَضاءلَ حتىٰ تَتَحَوَّلَ دُخَّانًا ، وبهذا تُمْسِي نائمةً آمِنَةً في قُمْقُمِها .

فإذا ما اسْتَيْقَظَتِ الروحُ بِها صارتْ كسنابِلَ من لَهَبٍ ، والليلُ يُحِيطُ بها فَتَراءتْ مُتَقارِبَةً حينًا ، مُتَباعِدَةً حينًا .. هي آلافُ الأوتارِ قدِ امْتَلأتْ بالمَعْنَىٰ .

بَعْضٌ من تلكَ الناسِ لَدَيْهِمْ أحلامٌ مُتَأجِّجَةٌ فانْدَمَجوا حتى لاحُوا في البُعْدِ حريقًا . قَد دَخَلَتْ أجسامُ النارِ بأجسامِ النارِ فصارتْ ألوانًا مُتَناغِمَةً مُتَحَوِّلَةً ... شَفَقٌ مُنْدَمِجٌ بظِلالٍ ، وبأطيافٍ ماضِيَةٍ في رِحْلَتِها .

فإذا ما هَبَّتْ ظُلُماتٌ غَيَّرَتِ الناسُ ملامِحَها .

هـــذِي الـجَـنَّـــةُ .. جَـنَّـــةُ نـاسِ الـنـــارِ
أَلَـيْـسَتْ مِـثْـلَ الـكونِ نـجُـومًا وظـلامًـا
يَـتَـخَـلَّـلُـهـا ؟

مـا أجـدرَهَـا أنْ تَـغْـدُوَ مـثـلَ الـكـونِ
وجـودًا مُـنْـتَـشِـرًا فـي أزمـانٍ هـائـلـةٍ ..
أزمـانٍ هـي أشـواقٌ راحِـلَـةٌ لـيـس لـهـا مـن
مـأوَىٰ .

أين أنا ؟ ها أسماءٌ تتكاثَرُ مِنْ حَولِي . أَشْعُرُ أني مِنْها .

قد جئتُ جَهَنَّمَ بَعْدَ عُبُوري آلافَ الأعوامِ فصِرْتُ أراها قد مَسَّتْها الرحمةُ والإشفاقُ فَكَفَّتْ عن تعذيبٍ ظَلَّتْ تَفْعَلُهُ حتى أَضْجَرَها .

وأنا أَمْضِي مُنْدَمِجًا بذُهُولي أحْسَسْتُ لهيبًا يَتَقَرَّبُ مِنِّي قالَ : " أنا الجاحِظُ . أصحابي ما عادتْ تَعْرفُني مُذْ عُدْتُ إلى أَصْلِي النارِيِّ فصرتُ جميلاً أَمْلِكُ أقداري ، وأُبَدِّدُ أنواري ، وأُصَدِّقُ مَن يُخْبِرُني أنَّ الأرواحَ هنا لن تَفْنَى .

وقديمًا أَوْمَأتُ إلى ناسِ الدنيا أن هناكَ نُفُوسًا من نارٍ لا تَحْرِقُها النارُ ، وأن الجَنَّةَ قد خُلِقَتْ لأناسٍ ليسوا مِنَّا .

هُمْ في أسْرِ الغِبْطَةِ راضُونَ . لقد بَلَغُوا غايَتَهم ، ولَعَلَّ قليلاً منهم يَشْتاقونَ إلَيْنا .

جَنَّتُنا كَبَدٌ من أحلامٍ ، ورحيلٌ عَبْرَ أغانٍ ، وذَهابٌ نحو وجودٍ مَنَّانَا أنْ نَتَوَحَّدَ فيهِ ثم تَباعَدَ عَنَّا ."

المحتـــوى

الكتاب الأول

بعض من الفناء	5
المُفِيق	13
العائلة	17
المَلاذ	27
الأسرار الأولى	31
العائش في الأصوات	35
المأسور	43
الأسرار	55
السفينة الجانحة	63
الواهم	73
الصديق	93
صاحب الأوكار	105
المرآة	109
ضوء الأغوار	125

الكتاب الثاني

الأصحاح المهجور	131
الهارب	139
العاشقان	157
الكاذب	161
في صمت الأشجار	177
الحرب الأبدية	181
الحالمون	211
العناكب	215
أحلام الجاحظ	247

أعمال الشاعر عادل عزت

	تاريخ الطبعة الأولى
١- المتصوفون الشعراء في الزمن العصيب	1983
٢- اختباء النور	1988
٣- العرب القدماء	1990
٤- هواجس الشاعر المقتول	1990
٥- السبعة	2000
٦- ظلام المرسم	2006
٧- البيت المسكون	2009
٨- قصائد الفاني الأبدي	2010

دواوين الشاعر عادل عزت على الموقع

www.adelezzat.com

السلام للطباعة
ت : 22989714 - 22960665 -22978425
فاكس : 22989251